لمسات قدرية في سورة يوسف

ودراسات قرآنية

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/٧/٢٣٥٠)

٢٢٢,٦
جرار، مأمون فريز
لمسات قدرية في سورة يوسف ودراسات قرآنية /
مأمون فريز جرار. عمان: دار المأمون، ٢٠٠٨ .
(١١٤) ص
ر.أ: (٢٣٥٠ / ٧ / ٢٠٠٨).
الواصفات: / سور القرآن/ / الآيات القرآنية/ / تفاسير القرآن/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

لمسات قدرية في سورة يوسف
ودراسات قرآنية

مأمون فريز جرار



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد...

فهذه مجموعة دراسات محورها القرآن الكريم جعلتها في أربعة فصول: الأول نظرات في سورة يوسف ولمسات القدر فيها، ولعل كل واحد منا يستطيع أن يضع يده على لمسات القدر في حياته، ولا يخفى أن لأنبياء الله تعالى خصوصية، لكن في حياتنا أموراً لا نملك لها رداً، وكان لها أثر في مسيرتنا، وتلمس هذه اللمسات لا يعني إشاعة المفهوم السلبي للقدر بل المفهوم الإيجابي له.

وفي الفصل الثاني: نظرات في القرآن الكريم وصلتنا به وأثره في حياتنا من خلال وقفات مع تفسيره ودور التفسير في بيان ربانية القرآن الكريم.

وفي الفصل الثالث: وقفة مع موضوع من موضوعات القرآن الكريم هو صورة أولي الأمر فيه.

وفي الفصل الرابع: وقفة مع الألوان في القرآن الكريم.

هذه الدراسات بعض ما منّ الله تعالى به من فهم في كتابه، اسأل الله أن يكون صواباً، ولعلها تكون فاتحة لجمع دراسات أخرى نشرتها من قبل وآن لها أنه تجمع في أكثر من كتاب لتكون من العلم الذي أرجو أن ينتفع به.

والحمد لله العليم الحكيم

مأمون فريز جرار

عمان ٢٠٠٨



الفصل الأول

لمسات قدرية في سورة يوسف

- الرؤيا والقدر
- كيد الإنسان وقدر المكان
- كيد النساء وملاذ السجن
- رؤى في السجن
- من السجن إلى البراءة
- لمسات القدر وتدبير البشر
- المحنة وتمام النعمة
- تدبير البشر في مقام القدر
- تمام النعمة بتأويل الرؤيا.

الرؤيا والقدر

سورة يوسف سورة تضمنت سيرة يوسف عليه السلام وهي من السور ذات الخصوصية التي تجعل لها في النفوس وقعا خاصا وكانت تلك الخصوصية دافعة لكثير من الدارسين للإقبال عليها ودراستها من جوانب مختلفة

ومما لفت نظري في هذه السورة ظهور لمسات قدرية فيها تساعدنا على إدراك علاقة الإنسان بالقدر، هذه القضية التي شغلت الإنسان منذ كان وما زالت تشغله ويتخذ الناس فيها ومنها مواقف متباينة.

سورة يوسف التي هي في أساسها قصة يوسف تتضمن لمسات قدرية بينة الوضوح سيرت الأحداث ووجهتها وسارت بها نحو نهايات محددة ولكننا في الوقت نفسه نجد للإنسان فعلا وإرادة في تسيير الأحداث أو توجيهها وفق ما يملك من فكر وإرادة وقدرة وعلم وحكمة.

ولنبدأ القصة من أولها من الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهذه الرؤيا أولى لمسات القدر التي تواجهنا، وأقول هي لمسة قدر لأنها ليست فعلا إراديا يقوم به الإنسان بل أمر يأتيه من غير طلب . بل إنها أمر أثار ذلك الغلام فاندفع نحو أبيه في دهشة وتعجب.

ولنستمع إليه وهو يقص على أبيه ما رأى:

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

ولعل مما يلفت النظر هذا التكرار للفعل(رأيت) وفيه ما فيه من دلالة الاندهاش من الرؤيا.

وهناك أمر آخر يقربنا مما رآه يوسف عليه السلام هو استخدام ضمير (هم) في الحديث عن الكواكب والشمس والقمر لا ضمير (ها) فلم يقل رأيتها لي ساجدة بل قال (رأيتهم لي ساجدين) وفي هذا التعبير ما يوحي بأن هذه الكواكب والشمس والقمر تشخصت في صورة أخرى جعلتها كائنات قابلة للسجود مع المحافظة على كونها كواكب وشمسا وقمرا ممّا جعل يوسف يدرك أصلها ويراها ساجدة له.

فاللمسة القدرية الأولى كانت هي الرؤيا وقد رأينا في تأويل يعقوب عليه السلام لها أنها رؤيا تحدد مسار ابنه يوسف عليه السلام. فقد فهم من الرؤيا أنها بشارة بالاجتباء الإلهي ليوسف، وهذا أيضا قدر هو من ثمرات الرؤيا لا يد له فيه بل هو منة إلهية.

ومن ثمرات الاجتباء تعليم يوسف تأويل الأحاديث أي تفسير الرؤى، وسنجد من آثار هذا التعليم لتعبير الرؤيا أثرا مهما في حياة يوسف من بعد يكون به تمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب، وذلك أيضا قدر لم يصنعوه هم بل كان من فضل الله تعالى عليهم .

هذه هي الصفحة الأولى التي تتجلى فيها لمسات القدر في حياة يوسف وسيرته بالرؤيا وما له بها صلة.

كيد الإنسان وقدر المكان

كانت الرؤيا اللمسة القدرية الأولى في حياة يوسف عليه السلام، والغريب أو الذي يلفت النظر أن يعقوب عليه السلام جعل تحذيرا مع البشارة ليوسف بتعليم الله له تأويل الأحاديث وتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب.

وقد تجلت آثار هذا التحذير سريعا والغريب أيضا أن يعقوب نهاه عن إخبار إخوته بالرؤيا وذلك يعني أن البوح بها خطر عليه وقد وضع لمسة مهمة في التحذير هي قوله :

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

وفي هذا الكلام إشارة إلى مصدر الشر ومنبع وحيه وهو الشيطان.

ونجد صدى هذا التحذير من الشيطان في آخر قصة يوسف حين قال لأبيه:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾

ويتضح الأمر جليا حين نربط كلام يعقوب بكلام يوسف عليهما السلام.

وقبل أن نقف على اللمسة الجديدة في حياة يوسف نقف على كيد الإنسان الذي هو عمل إرادي يبوء بإثمه فاعله وهو الحسد الذي يدفع إلى تآمر الإخوة على أخيهم تآمرا يصل إلى حد التفكير بقتله وهذا التفكير جريمة وفعله جريمة أكبر.

ولكن يقف الإنسان وهو مندهش من لمسة القدر الإلهي كيف تجري في غفلة من الكيد الإنساني فبدلا من أن يتحقق كيدهم ومكرهم يتحقق كرم الله وإنعامه، وتمضي الأقدار لتقود يوسف إلى تمام النعمة وتأويل الأحاديث ولترى إخوة يوسف ينقلب عليهم مكرهم فلا يخلو لهم وجه أبيهم بل يتوله على الابن الغائب الذي كان عنده يقين أنه حي وأنه سيلقاه ذات يوم لكن بعد محنة عصيبة.

لقد فكر إخوة يوسف في طرق يتخلصون بها من يوسف فعرض بعضهم القتل واقترح بعضهم أن ينفوه من ديارهم.

وانتصر الرأي الثاني واتفق الإخوة على أن يلقوا يوسف في جب على طريق القوافل لتلتقطه قافلة وتمضي به إلى ديار بعيدة.

إن مما يلفت النظر أن يعقوب عليه السلام لم يبحث عن يوسف بعد أن عاد أبناؤه زاعمين أن الذئب قد أكله مع يقينه أنهم كاذبون وكذلك يوسف استسلم للقدر فلم يحدث أهل القافلة بأمره بل لاذ بالصمت مستندا إلى وحي الله له:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ولنقف على لمسة القدر الرائعة التي تجلت في كـون القافلـة الـتي التقطـت يوسف كانت متجهة من الشام إلى مصر ولم تكن متجهة مـن مصـر إلى الشـام ولا يعلم إلا الله ماذا كان سيحدث لـو كـان ذلـك بـل أقـول: لم يكـن ذلـك ليحدث لأن القدر الإلهي رتب ليوسف دورا في مصر لا في سـواها بـل أكثـر من هذا كان من تتمة القدر الإلهي أن يكون عزيز مصر لاينجب وأنـه بحاجـة إلى غلام ذي مواصـفات محـددة ليصـلح للعمـل عنـده ويكـون بمنزلـة الابـن ولذلك كان من قدر الله تعالى أن اشتراه عزيز مصر لا سواه.

ومن القدر الذي لم يكن ليوسف يد فيه أن خلقه الله تعالى في غاية الحسن وقد كان هذا القدر بالحسن اللافت للنظر سببا في محنة قادته إلى المنحة الربانية التي تحققت بها الرؤيا.

كيد النساء وملاذ السجن

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾

هذا ما كان من عزيز مصر الذي اشترى يوسف عليه السلام.

رأى أنه بشرائه يوسف غنم عبدا نافعا يصلح أن يكون ولدا بالتبني والأمر كان مدار عرض وتفكير بينه وبين زوجته.

لكن هذا الغلام على كل حال نافع في ما يقدمه من الخدمة في البيت.

هكذا الأمر في ما يبدو للعين.

ولكن يد القدرة الإلهية التي تدبر الأمر تخبرنا أن دخول يوسف عليه السلام بيت العزيز كان بداية التمكين له في الأرض ومنطلق تحقيق الرؤيا وذلك ما لم يعلمه أحد غير الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

دخول بيت العزيز كان بداية التمكين ليوسف في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث مرقاة له إلى موعود الله تعالى له بالتمكين الفعلي في الأرض.

وفي الآية إشارة لا بد من الوقوف عندها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أكثر الناس غافلون عن مجريات القدر الإلهي ينظرون إلى سطوح الأحداث: تغرهم تسرهم تزعجهم ترضيهم تغضبهم.

لكن كم منهم من يخترق السطح إلى الأعماق ويتجاوز القشور إلى اللباب ويتلقى الرسالة ويرضى كما رضي يعقوب من قبل ورضي يوسف أن يكون عبدا يباع ومملوكا يشترى وخادما في بيت عزيز مصر.

كم من الناس ينظر إلى الأحداث بعين الخضر لا بعين موسى عليهما السلام، ولنتنبه إلى الإشارة إلى تعليم يوسف عليه السلام تأويل الأحاديث.

كان لا بد أن تقع رؤى وأن تعرض على يوسف عليه السلام ليؤوّلها وليعلم الناس فضل ما لديه من العلم، لا بد من محركات للأحداث هي كالريح التي تسوق أشرعة السفن في البحار لتمضي إلى غاياتها.

ولننظر في محركات الأحداث التي سارت بيوسف درجة درجة إلى أن بلغ تمام النعمة.

بلغ يوسف في بيت العزيز بعد مدة من دخوله أشده وهذا يعني أنه بلغ مبلغ الرجال ونضجت شخصيته الذكورية.

يتجلى ذلك في تلك العاطفة الأنثوية التي بدأت تتحرك وتنمو في قلب سيدته امرأة العزيز.

لم يعد يوسف قي نظرها الفى الصغير والعبد المستخدم ولم يرق لها عرض زوجها أن يتخذاه ولدا.

لقد تحول من عبد في أعين من حوله إلى سيد لها في قلبها.

صار مشتهاها وشاغل فكرها تراقبه وتتابعه وتعيش معه في خيالها حياة أخرى غير ما يجري أمام أعين الناظرين.

ولما أن بلغ الأمر في خيالها منتهاه ولم تعد تطيق صبرا أن يظل ما تتمناه خيالا تعيشه في أحلامها يقظة ومناما قررت أن تحول الحلم إلى حقيقة.

قررت أن تزيح الستار بين العبد والسيدة وأن ترفعه إلى مقامها، وكانت تتوقع أن الأمر سيكون كما تحب وتشتهي، وأنه إن عرف ما لديها نحوه من المشاعر سيقبل عليها سريعا ويحقق لها ما تريد لعلها لّمحت له فتجاهل تلميحاتها وأوحت له فتغافل عن إيحاءاتها.

لعل هيبة السيدة وقيود العبودية تمنعه من الاستجابة فلتهيء الأمر لتحويل الحلم إلى حقيقة

ولتزل الجدار الوهمي الفاصل بين العبد في أعين الناس وسيد القلب في عينها.

وكان منها ذلك خططت ودبرت وأعدت للقاء الموعود العدة يوضح ذلك كله هذه العبارة القرآنية الموحية المكتنزة بالمعاني المغنية عن كثير من الشرح:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

كان رد فعله الأولي صاعقا لها فهل يمكن أن يرفض عرض امرأة ذات منصب وجمال؟

كان الأمر عندها قضية مفروغا منها لا بد من تحقيقها ولذلك لم يكن الأمر يحتمل الرفض أو المساومة.

ولم يوقظ عقلها الغارق في غمرات الشهوة ذلك النور من الوعي الذي انطلق من لسانه:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الله ربه لا يرضى له أن يمارس الفاحشة. و سيده صاحب البيت وزوج المرأة التي تراوده أحسن إليه وأكرم مثواه وعامله معاملة طيبة فكيف يخونه في امرأته.

وذلك الذي تدعوه إليه ظلم لا يفلح فاعله وهو لا يحب أن يكون من الظالمين.

كل ذلك لم يجل غمرات الشهوة فقد اتخذت قرارا لا رجعة عنه ولو كان باغتصاب يوسف، إن لم يقبل عليها طوعا.

وكان ما كان من تمنعه وتمزيقها قميصه وهذا يؤكد فكرة الاغتصاب من طرفها، وكان ما لم تكن تتوقعه من عودة الزوج إلى بيته وهي في غمرة

الأحداث لأنه لا يتصور أن تخطط لأمر مثل هـذا في وقـت تتوقـع فيـه عـودة الزوج.

وكان ما كان من قيام الدليل على براءة يوسف وحفظت القضية وبدا أن مقام يوسف في هذا البيت لم يعد كما كان.

كان بيت العزيز دار أمـان لـه أكرمـه أهلـه لكنـه بعـد هـذا الموقـف صـار جحيما، فهو يتوقع الانتقـام مـن السـيدة الـتي لم يطاوعهـا وتوقـع منهـا إعـادة الكرّة.

وكان ما توقعه بل زاد الأمر سوءا بدخول صواحبها على الخـط فبعـد أن لمنها في غوايتها أغواهن ما أغواها من جمال يوسف ولم تعد المراودة فرديـة بـل جاءته عروض غواية كثيرة.

كان كيد النساء الريح التي دفعت شراع يوسف نحو محطة جديـدة وميـنـاء جديد في رحلته، إلى ميناء تمام النعمة وتحقق الرؤيا.

لم يستجب يوسف لعروض الإغراء استعصم ولجأ إلى ربه الـذي عصـمه عند المراودة الأولى، ورأى أن محطته التالية هي السجن الذي يجد فيه أمنـا مـن الإغراءات.

وتحقق له ما أراد ووافق ذك مـا اقترحتـه امـرأة العزيـز مـن عقوبـة عنـد انكشاف أمرها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

كان السجن مخرجا للعزيز يستر به وجهه وسمعة امرأته بعد انتشار الخـبر بين الناس. وكأن مخرجا ربانيا ليوسف يأمن فيه على دينه وتتكشـف فيـه هبـة الله له بتأويل الأحاديث.

رؤى في السجن

دخل يوسف عليه السلام السجن ليكون ملاذا آمنا له يتقي فيه كيد النساء بعد أن بلغ حدا لا يطاق.

وليتحقق له في السجن ما أراد الله له من النعمة والكرامة لا ما أرادت له امرأة العزيز ومن معها من النسوة من الفتنة والمتعة الحرام.

وهذا يذكرنا بما أراده له إخوته من النفي والإبعاد ليتخلصوا منه ولكن لله مرادا وللناس مرادا

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

دخل يوسف السجن، ويتجلى الترتيب القدري في هذا الدخول حين يدخل معه السجن فتيان. ألا يذكرنا هذا الترتيب بما كان من أمر القافلة من قبل، تلك القافلة التي كانت متجهة نحو مصر.

دخل معه السجن فتيان نعرف من بداية رحلة يوسف في السجن أنهما كانا متهمين في قضية خطيرة.

وتجلى ذلك في ما رأيا من رؤيا وقد شغل بال كل منهما ما سيكون من حكم في حقه، وتجلى ذلك في رؤياهما.

دخل مع يوسف الفتيان المتهمان لتنكشف موهبة يوسف في تأويل الرؤى، ولنرى بعض تجليات تأويل يعقوب لرؤيا يوسف من قبل

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

جاءت الفرصة في السجن الذي هرب إليه يوسف من الحرام المتجلي في كيد النساء ليفتح له باب العلم من حيث لا يحتسب الجاهلون.

وكانت رؤيا كل من صاحبي السجن لمسة قدر جديدة في حياة يوسف كما كان تأويل الرؤى، فكلاهما أمر لا إرادة للإنسان فيه.

ونجد يوسف قبل أن يؤول ما رآه صاحباه، وقد تفتحت شخصيته وتجلت ملامحها الإيمانية، فلم يعد ذلك الخادم في بيت العزيز بل صار الداعية إلى الله.

وكانت أولى ملامح الداعية قد تجلت في موقف المواجهة مع امرأة العزيز حين لم يستسلم لطغيان شهوتها وهياج أنوثتها بل وقف موقف المذكر لها ولنفسه بالله وبحق الزوج وبعاقبة الخيانة.

وها هو الآن حر طليق، وإن يكن سجينا، فهو حر في أن يقول ما يشاء ويعبر عما يؤمن به، ولذلك وجدناه قبل أن يؤول الرؤيين ينسف ما عليه أهل مصر من معتقد ويدعو إلى التوحيد الخالص لرب العالمين.

وكم هي مختلفة صورة يوسف في هذا الموقف عما ألفناه من قبل، حيث كان من قبل غلاما شغل بال والده وأثار غيرة إخوانه.

وكان من قبل الفتى الجميل الذي شغف به قلب امرأة العزيز، تلك المرأة التي تجمع النسوة اللاتي لمنها وتأمره أن يخرج عليهن فلا يملك ردا لطلبها.

أما الآن في السجن وقد تحرر من كل القيود فهو حر استعاد حريته وإرادته فهو يقول ما يشاء، ويثق الصاحبان بتأويل يوسف لما رأياه من قبل من صلاحه ومن علامات جعلتهما لا يجادلانه في التأويل.

ويتحقق ما أوله يوسف، فيصلب أحدهما عقوبة على جريمة لا نعرف ما هي، وينال الآخر القرب من الملك ويصبح ساقيا له، وتأتي في السياق لمسة قدرية جديدة تؤجل الإفراج عن يوسف عدة سنوات مع أن التوقع كان أن ينال يوسف الإفراج السريع فله شفيع عند الملك ولكن ذلك لم يحدث.

فقد نسي صاحبه الوعد أن يرفع قضيته إلى الملك وكأنها صفحة طويت من ذاكرته.

ترى لو أن ساقي الملك لم ينس وشفع ليوسف وخرج من السجن أكانت أموره تجري كما جرت من بعد؟

قدر الله غالب وإرادة الله لا راد لها، ومن جعل إرادته وفق إرادة الله واستسلم لها وتوكل على الله، نال الخير وعاش آمنا.

من السجن إلى البراءة

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

إنّه قدر الله الغالب الذي غمى على ذاكرة السجين الناجي من السجن الذي صار للملك ساقيا، لم يكن النسيان يوما أو يومين ولا أسبوعا ولا شهرا بل كان بضع سنين.

ترى كيف قضى يوسف عليه السلام تلك السنين؟

أجزم أنه لم يقضها في حزن وأسى ولا في هم وغم.

أوليس معه منذ الجب تلك الرعاية التي جعلته يستسلم لقضاء الله ويثق بحكمته.

هذه السنوات في السجن كانت سنوات حرية وتخلص من آثار سنوات العيش في قصر العزيز مع سيدة القصر التي لم تحسن اتخاذه ولدا كما أراد زوجها.

بل إن مما يلفت نظري أن يوسف عليه السلام لم يفك أسره من قيد العبودية في أي موضع من مواضع السورة مما يدل على أنه منذ شرائه لم يكن عبدا بصك عبودية بل كان أقرب إلى الولد المتبنى كما قال من اشتراه:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾،

وكذلك يبدو أنه كان.

ولك أن تقف مع هذه المحنة المنحة التي تعرض لها نبي الله يوسف وقد تسأل لماذا؟ ولماذا في السجن؟

وقد كان بعض الجواب من قبل في تأويل الرؤيا وبعضه في ما هو مقبل من لمسات القدر في حياة يوسف.

كان يمكن أن ينسى يوسف في السجن سنين بلا عدد ولم يكن له باب فرج ممن توله قلبها به لأن أي شفاعة منها سيكون فضيحة لها وإدانة لموقفها ولذلك لم تسأل عنه على مرور السنين.

وإذا كانت المتولهة به قد تجاهلت محنته بل كانت سببا ظاهريا فيها فإن ربه العليم الحكيم لم ينسه.

بل هيأ له السبيل إلى النجاة من السجن والارتقاء إلى القصر ليكون أمينا على خزائن الأرض عزيزا في مصر بعد ما أصابه من فتون.

وتأتي لمسة القدر في رؤيا جديدة يراها هذه المرة ملك مصر.

ويشاء الله تعالى ألا يكون في حاشية الملك من يستطيع تأويل الرؤيا بل يقولون له كلاما لا يقنعه

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

لم يقنعه كلامهم ولم يصدق أنه أضغاث أحلام لأن الرؤيا تكررت معه أكثر من مرة وألحت عليه فأحس أنها ذات شأن

ولنتنبه إلى الصياغة:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾

ولم يقل رأيت فلو كانت الرؤيا مرة واحدة من غير تكرار لقال :رأيت كما قال يوسف من قبل لأبيه:

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾.

ولننظر في حكمة الله تعالى الحكيم الخبير الذي وهب عبده يوسف تأويل الأحاديث وجمع بين يوسف وساقي الملك السجين السابق وأول لـه رؤياه في السجن ثم ها هو تكون رؤيا الملك مذكرا لصاحب السجن الناسي وكأنه استيقظ بعد نوم طويل امتد بضع سنين، والله أعلم بما كان من حاله حين سمع رؤيا الملك وسمع ما قاله الملأ ولعله ضرب بباطن كفه على جبهته وهو يلوم نفسه وهو يقول: يوسف الصديق آه كيف نسيتك كل هذه السنين ولكن لا بأس ها جاءت الفرصة وفي ظروف لعلها تضمن لك الفرج.

وفي لحظة الصحو هذه وعد الملك بأن يأتي بتأويل الرؤيا قال ذلك يقينا لا شكّا فله سابق تجربة.

ويعطينا يوسف نموذجا في الرزانة والحكمة فلم يحدثنا القرآن الكريم عن عتاب لصديقه ولم يتردد في تأويل الرؤيا بل حدثنا عن تمنع عن الخروج من السجن إلا بعد طيّ صفحة السجن وتبييض الصحيفة وبيان الحقيقة: حقيقة براءته من السوء الذي نسب إليه ودخل به السجن.

لمسات القدر وتدبير البشر

أول يوسف الرؤيا لساقي الملك وكان تأويلا وجد في قلب الملك مكانا وأحس أن صاحب التأويل إنسان يوثق به ويعتمد عليه فكان أمره:

﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾.

وهو أمر يدل على الإعجاب إلى حد الانبهار والعجب أن يكون في السجن ولم يسارع يوسف إلى تلبية دعوة الملك والانصياع لأمره.

إنه يوسف الحكيم الذي وهبه الله عقلا راجحا يزن الأمور قبل الإقدام عليها، لقد دخل السجن دخولا احتياطيا للملمة الفضيحة وإطفاء نار الشائعة، فكيف يخرج وأصداؤها في آذان الناس الذين يُعيِّرون ولا يغفرون؟ فلتكشف الحقيقة.

لم يكن يوسف عليه السلام قدريا تمضي الأمور معه استسلاما بل لا بد أن توضع الأمور في نصابها وليظهر البريء ولينكشف المجرم ولو كان سيدة القصر التي اتهمته بما همت به.

وما أعظمه من مجلس يتولى الملك التحقيق فيه ويوسف غائب عنه في السجن ينتظر وضع الأمور في نصابها قبل الخروج .ما أعظمه من مجلس توضع فيه الأوراق مكشوفة من غير ستر، وتظهر فيه الدخائل والحقائق من غير تزوير، وتعلن براءة من سينتقل من السجن إلى القصر.

﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾.

شهادة نسوة المدينة.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

شهادة المرأة التي ألقت التهمة وكانت صاحبة اقتراح السجن.

بعد هذا يأتي طلب الملك ولكن على غير صيغة الطلب الأول:

﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾.

في هذه اللحظة الحاسمة في سيرة يوسف تتجلى كل لمسات القدر السابقة:

الرؤيا التي رآها، ومفارقته أباه بكيد الإخوة ،وانتقاله إلى مصر بتدبير القدر الإلهي، وشراء عزيز مصر له، وتولّه امرأة العزيز به وتمنعه واعتصامه بربه، وإلقاؤه في السجن، وتوافق سجنه مع صاحبيه اللذين يصبح أحدهما ساقي الملك، ورؤيا الملك التي تأتي بعد حين، كل ذلك كان تمهيدا ومقدمة لبداية تمام النعمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ومن لمسات القدر التي تمهد للقائه بإخوته ولم شمل أسرته من جديد هذا الجدب الذي يأتي بعد سنين فلا يصيب مصر وحدها بل ما حولها من البلاد مما يجعل إخوته يتجهون نحو مصر لا إلى عيرها لأن حكمة يوسف الذي تولى

خزائن الأرض حمت مصر من الكارثة الاقتصادية وجعلتها محط أنظار الجياع أو الباحثين عن الحبوب التي تقوم بها الحياة.

إنها حكمة الله التي تجمع يوسف بإخوته بعد سنين طويلة ليجد تأويل وعد الله له:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهاهم يدخلون عليه فيعرفهم بسيماهم التي لم تتغير تغيرا يخفون به عليه ولكن أنى لهم أن يعرفوه وقد كان صغيرا فكبر، وعليه أبهة السلطة التي شكلت حجابا جعلهم لا يعرفونه.

ويبدأ فصل جديد في حياة يوسف نجد فيه آثار لمسات القدر وملامح تدبير البشر.

المحنة وتمام النعمة

ما الذي كان يفعله أحدنا لو كان مكان يوسف عليه السلام وقد مكن الله تعالى له في الأرض؟

أليس التفكير في ذلك الأب الذي توله قلبه به طفلا، والمسارعة إلى إحضاره إلى مصر لتقر عينه بعد طول ألم بسبب ما كان من فراق ومحنة؟

ترى هل نسي يوسف أباه على مر السنين؟ وهل نسي إخوته وما كادوه له من تدبير ألقى به بعيدا عن أبيه ودياره يباع في سوق الرقيق وتنال منه المحن؟

لا أظن ذلك فلم ينس يوسف أباه ، وقد ذكر يوسف أباه وهو في السجن:

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾.

ولنتذكر ما قاله له أبوه في تأويل الرؤيا:

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

لقد تمت النعمة على يوسف بعد المحنة، وها هو صار في مصر على خزائن الأرض وطويت من حياته صفحات مؤلمة.

ويبدو أن النعمة لا تتم إلا بمحنة وممن ستتم عليهم النعمة كما تنبأ يعقوب في تأويل الرؤيا آل يعقوب: أي إخوته الذين كادوا له فهل هم في حالهم الذي كانوا عليه أهل لذلك؟ يبدو أنهم لم يكونوا بعد أهلا لها ولذلك لا بد أن يدخلوا المحنة لتصفو نفوسهم من شوائب الماضي وجهل الكيد ويقفوا على تدبير الله لعباده ما لا يتوقعون من الخير في محن لو أنهم استشيروا في أمرها لآثروا السلامة منها لجهلهم بما فيها من الخير الذي سيتحقق لهم.

وفي هذا درس للمؤمن أن يرضى بما يقع خلاف مراده، ويسلم بقضاء الله تعالى من غير تقصير أو تفريط في ما هو مطلوب منه من الاستعداد والأخذ بالأسباب.

كان لا بد لإخوته من المرور بمحنة والوقوع في أزمة تصفيهم وتنقيهم وتطهر نفوسهم وكانت محنتهم على يد أخيهم الذي أرادوا به كيدا ففتح الله تعالى له من النعمة التي سيجدون أثرها في حياتهم من بعد.

وكانت محنة على مراحل بدأت بإشارة منه إلى أبيه الذي أرى أنه فهمها ولكنه لم يستعجل حتى يتثبت منها ، تلك هي طلبه من إخوته الذين لم يعرفوه أن يحضروا إليه أخاهم من أبيهم.

وكان عليهم أن يسألوا العزيز: وما أدراك أيها العزيز أن لنا أخا غير شقيق؟ ومن نحن حتى تكون على علم بتفاصيل حياتنا؟

لكنهم لم يفعلوا، ولم يسألوه: لم تربط تزويدنا بالميرة بحضور أخينا فنحن جئنا لحاجة فاقضها لنا لنمضي في سبيلنا؟

كان عليهم أن يسألوا ويفكروا وينظروا.

أعطاهم إشارة لم يفهموها وحال بينهم وبينها غـربتهم وكربـة المحـل وذل الحاجة وأبهة الملك على يوسف، ولذلك لم يدققوا النظر في وجهه، ولم تتحرك حرارة الدم في عروقهم فيعرفوا أخاهم، ولو كان بينهم وبينـه سـنوات طويلـة تغيرت فيها ملامحه، ولكنه بقي يوسف الذي يلفـت الأنظـار فكيـف عميـت عيونهم عنه؟

لم يكن ليخطر لهم أن يصير يوسف عزيزا لمصر.

يوسف الذي ألقوه في غيابـة الجـب والتقطـه بعـض السـيارة ومضـى إلى أحوال لم يتعبوا عقولهم بالتفكير فيها.

لكن أباهم كان على حـال غـير حـالهم، كـان علـى علـم برؤيـا يوسـف ودلالاتها وتمام النعمة المنتظر وإن طال أمده.

كان دائم التفكير في يوسف وما كان من أمره وعلينا ألا ننسـى أنـه كـان نبيا.

ولذلك أقول إن يعقوب علم ما لم يعلموا مما كان مـن شـأنهم مـع عزيـز مصر وفهم من إشارة يوسف ما لم يفهمـوا، وأنـا أسـتدل علـى قـولي بـذلك التدبير الذي زود به يعقوب أولاده حين وافق بعد شروط على مرافقة أخيهم الذي طلبه العزيز وحدد لهم طريقة دخولهم على يوسف حين يدخلون عليـه بقوله:

﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾.

ذلك الذي قال الله تعالى عنه:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾.

ولا أرى ما ذهب إليه من فهم من هذه الحاجة رد العين ودفع الحسد فأي عين وأي حسد في مثل حالتهم وبؤسهم وحاجتهم ومحنتهم؟

الحاجة التي كانت في نفس يعقوب والله أعلم هي التثبت من كون يوسف هو يوسف، ليتأكد من الرسالة التي بعثها إليه يوسف برد البضاعة إلى إخوته وطلب أخيه الشقيق.

كانت المحنة الشديدة التي وقع فيها إخوة يوسف هي ذلك التدبير الذي قام به لاحتجاز أخيه عنده مما أوقعهم في حرج مع أبيهم الذي أخذ عليهم الميثاق بالمحافظة عليه.

وهذا التدبير لم يصب إخوانه فحسب بل أصابت المحنة أباه وجعلت حسرته تبلغ ذروتها حتى ابيضت عيناه.

فهل كان يوسف يعلم ما يفعل وهل كان في ما فعله قسوة لم يسلم منها أبوه؟

هل كان ينتقم أم كان ينفذ قدر الله تعالى بتصفية النفوس وصهرها لتكون أهلا لتمام النعمة؟

تدبير البشر في مقام القدر

منذ خرج يوسف عليه السلام من السجن وصار عزيـزا في مصـر لم يعـد للمسات القدر أثر ظاهر في حياته هو فقد تجلت تلك اللمسات السابقة في تمام النعمة عليه وامتدت آثارها فيها.

وقد صار زمام الأحداث في يد يوسف عليه السلام ليتجلى القدر في مـا يفكر ويخطط ويفعل، صار يوسف عليه السلام هو يد القدر لتتم النعمة علـى آل يعقوب عبر محنة قاسية تجلت في حياة أبيه يعقوب عليه السلام.

لقد ابتلي يعقوب عليه السلام بفراق يوسف ابتلاء لم يكن اقل من ابـتلاء يوسف عليه السلام بالغربة وأحداثها، فقد كان شديد التعلق به إلى الحد الذي جعله يقول لإخوته حين طلبوا منه أن يسـمح لـه بمـرافقتهم إلى النزهـة الـتي كادوا له فيها :

﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾.

وهذا القول يمكن أن يفهم على معنيين: الأول الحـزن علـى فراقـه المـدة القصيرة التي تستغرقها النزهة.

والآخر الحزن على فراقه الطويل المتوقـع بكيـد إخوتـه لأن الرؤيـا الـتي فسرها يعقوب عليه السلام كانت توحي بالفراق الطويل لتتم النعمة.

هذا التعلق الشديد بيوسف عليه السلام ثم بأخيه الشقيق من بعد أراد الله تعالى أن يطهر منه قلب نبيه يعقوب عليه السلام ليصفو قلبه لربه سبحانه فكان ما تعلق به قلبه من دون الله سبب ابتلائه مرتين.

أولم يبتل من قبل جده إبراهيم عليه السلام بولده إسماعيل الذي جاءه على كبر؟ لقد ابتلي بفراقه فوضعه في واد غير ذي زرع مع أمه هاجر، نعم كان لله تعالى تدبير أن تنشأ مكة في واد غير ذي زرع بتفجر زمزم ببركة وجود الطيبين: هاجر وإسماعيل ُثم ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام من بعد.

وابتلي به مرة أخرى حين رأى في المنام أنه يذبحه فهمّ بذلك استجابة لأمر الله، فهل كان الذبح رمزا لزوال التعلق بالولد وصفاء القلب لله الذي اتخذ من إبراهيم عليه السلام خليلا؟

وقد كان الفصل الأول من المحنة في حياة يعقوب عليه السلام بتدبير أخوة يوسف وكيدهم له.

وكان الفصل الثاني بتدبير يوسف وكيده ؛ ذلك الكيد الذي هو التدبير الخفي الذي جاءت نسبته قي كتاب الله إلى الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

فكان يوسف في الكيد الثاني أداة في يد القدر كما كان إخوته من قبل، ولكن شتان بين الموقفين في النوايا؛ فقد أرادوا بكيدهم سوءا بأخيهم ومن وراء ذلك بأبيهم بتزيين الشيطان لهم واتباعهم هوى أنفسهم.

وأراد يوسف عليه السلام بذلك خيرا لتهيئة أبيه وإخوته لتمام النعمة وتحقق الرؤيا في أجلى صورها.

لقد كان لقاء يوسف بأخيه الشقيق مبعث فرح له، لقيه لقاء الأخ المسرور بأخيه، وإن كتم مشاعره في الظاهر، يتجلى ذلك في هذا الوصف القرآني المختصر:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وكم في هذا الموقف والقول من اختزال لمراحل من العمر واكتناز بمشاعر كانت تمور في نفس يوسف عليه السلام تجاه إخوته الكائدين وتجاه أخيه الشقيق الذي عانى بعد رحيل يوسف معاناة شديدة منهم.

وانظر كيف استطاع يوسف أن يخفي مشاعره في لقاء الصدمة الأولى تجاه إخوته وحبس مشاعره تجاه أبيه ثم دارى مشاعره حتى خلا بأخيه الشقيق فقال له ما قال مطمئنا له ليتهيأ لما سيكون من حوار حول صواع الملك.

وازن هذا بما كان من ظاهر موقفه مع إخوته في لقاءيه الأول والثاني. صحيح أنه رد إليهم بضاعتهم وذلك لم يكن منه تكريما لهم ولا حبا فيهم بل كان ذلك إشارة إلى أبيه الذي قلنا من قبل إنه فهمها وتجلى ذلك في الرد عليها بإشارة هي دخول أبنائه من أبواب متفرقة.

ومنها إرسال ابنه الذي طلبه يوسف عليه السلام رغم تخوفه عليه من كيدهم.

صحيح أن المحنة اشتدت على يعقوب فكانت كالنار التي تعلو درجتها تحت المصهر ليصفو الذهب من كل شائبة ، اشتدت المحنة وما زال الشك وسوء الظن هو الموقف من يعقوب تجاه أبنائه:

﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾.

ولكنه لم يفقد الأمل الموعود بلم الشمل وتمام النعمة:

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾.

وتلمس يعقوب عليه السلام مما يحدث من المحنة حكمة ربانية خفية:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وأجد في قول يعقوب عليه السلام شيئا من العتب على يوسف الذي حبس أخاه عنده وزاد محنة أبيه المنتظر سنوات طوالا لتكتحل عيناه بيوسف وتتم النعمة لاسيما أنه بلغ من العمر عتيا:

﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾.

أجد نوعا من العتب في قول يعقوب عليه السلام:

﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

فهل نفهم من هذا القول أن أدرك أنه يوسف هو عزيز مصر وأنه حبس أخاه ولوّع أباه بدلا من أن يسارع إلى لم الشمل؟

ولذلك لم يدرك أبناء يعقوب مغزى ذكر يوسف في موقف نسوه فيه، و كان البحث فيه في أمر الشقيق المحجوز عند عزيز مصر بتهمة السرقة.

ولذلك جاء قولهم في تعجب:

﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾

وانظر قسوتهم في التعامل مع الأب المفجوع من قبل بيوسف ومن بعد بشقيقه واستخفافهم بعلمه وحكمته، وانظر في رده الحكيم عليهم:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثم انظر هذا الإصرار منه على ذكر يوسف وربطه بأخيه وانظر رقة خطابه للأبناء الذين يجد منهم قسوة مبعثها الجهل حين يبدأ خطابه بتذكيرهم أنهم أبناؤه:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

وكأنه يقول لهم لقد اقترب موعد الفرج، قالها بثقة المؤمن المطمئن إلى وعد ربه لكنه يظل بشرا له أحاسيس البشر ولو كان نبيا ولذلك تأثر بالمحن وابيضت عيناه من الحزن ولكنه لم ييأس من روح الله.

تمام النعمة بتأويل الرؤيا

صغيرة هي الدنيا وعجيب أمر أحداثها، وقصيرة هي المسافة بين بدء المحنة وانجلائها وإن طالت سنين يكبر فيها الصغير ويشيب الكبير وتتغير أمور.

كم هو البون شاسع بين موقف إلقاء إخوة يوسف له في الجب بقلوب قاسية غشيتها ظلمة الحسد، وغلفها كيد الشيطان وهوى النفس، فلم تلق بالا لحقوق الأخوة ولم ترأف بقلب الأب، كم هو البون ساشع بين تلك اللحظة ولحظة المواجهة مع يوسف تلك اللحظة التي انكشف فيها الستار وزال الحجاب عن وجه العزيز لينكشف عن وجه يوسف.

يوم ألقى إخوة يوسف به في الجب كانوا في قمة النشوة ويوم دخلوا عليه قبيل لحظة الكشف والمواجهة كانوا في أدنى حالاتهم النفسية:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

ترى هل كان لهذا الموقف أثر بالغ في مسح كل جراح الماضي في قلب يوسف تلك الجراح التي جعلت قلبه يقسو حينا من الزمن حتى يأتي وقت الكشف فلم يتعامل معهم من قبل كإخوة له بل كغرباء عنه، بل تعامل معهم تعاملا أذاقهم عاقبة كيدهم له.

بلغت المحنة مداها على إخوته بل على أبيه وحان وقت المواجهة وكشف الحجاب. جملة واحدة منه هي التي أزالت عن أعينهم الغشاوة حين قال لهم:

﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾.

وهنا نكتشف أن أخاه الشقيق قد ناله من كيدهم وظلمهم ما جعله يعجل بإحضاره إليه قبل الأسرة كلها ليعالج ما كان في نفسه من جراح قبل لحظة اجتماع الشمل لتكون لحظة صفاء منه ومن أخيه الشقيق.

يوسف!!! يقولها العزيز!! وكأنهم قد عاد إليهم الوعي واسترجعوا كل ما كان من هذا العزيز معهم اول مرة من رد البضاعة وإيفاء الكيل وطلب الأخ غير الشقيق وكل ذلك لم يجعلهم يفكرون ويسالون وينظرون في وجه هذا العزيز الغريب الأمر نظرة تفحص وتدبر.

الآن وقد ذكر يوسف استردوا وعيهم وتوازنهم وقدرتهم على الإدراك وقالوها هكذا بتخط لكل الحواجز والمراتب ومظاهر الملك من غير تحفظ، تلك التي كانوا في أسرها قبل قليل حين طلبوا منه أن يتصدق عليهم:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

ولندقق في التعبير، لم يقولوا أأنت يوسف؟ استفسارا بل جاؤوا بإن بعد الاستفهام ولام الابتداء (المزحلقة) تعجبا من أمور: من أنفسهم أنهم لم يعرفوه من قبل وقد خفي عليهم أخوهم، وتعجبا مما آل إليه أمره من العز بعد كيدهم له: تعجب واستنكار واستحياء من أنفسهم وقد واجهوا أخاهم بعد فعلتهم السوداء معه وبعد مواجهتين كان يعرفهم فيهما وكانوا عنه من الغافلين.

ونحس أنهم هم هم لم يتغير باطنهم ومنهجهم في المقارنة ولذلك قدموا المقارنة بينه وبينهم على الاعتذار:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

وبعد ذلك جاء قولهم:

﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

ويأتي جواب من صفت نفسه بعد أن عالجها بما مر من أحداث مهدت لهذا الموقف:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وفي ذكر (اليوم) معالجة لما قد يقع في نفوسهم من خوف الانتقام وفي رد المغفرة إلى الله إعلان عن تنازله عن حقه الخاص، وبقي الأمر بينهم وبين ربهم إن علم منهم صدق التوبة غفر لهم.

ويمضي البشير بقميص يوسف ليلقيه على وجه يعقوب ليعود إليه بصره بعد أن ابيضت عيناه حزنا على يوسف وتأثرا بما مر به من محن ونجد يعقوب عليه السلام في موقف لا يليق به لا باعتباره نبيا ولا باعتباره أبا أو جدا حين يجد ريح يوسف قبل وصول البشير ونجد رد الفعل ممن حوله من أبناء لم يكونوا مع المسافرين أو من أحفاد له لأن السياق قال:

﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

وواجهوه بما لا يليق به بقولهم:

﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

ويصل البشير ويعود البصر إلى عيني يعقوب ويسترد مكانته في القلوب بعد أن تيقنوا أنه لم يكن مخرفا في ما كان يتحدث به عن يوسف من قبل ومن بعد.

ويقف الأبناء بعد عودتهم من مصر موقفا حرجا آخر مع أبيهم ظهر فيه كذبهم القديم بادعاء أكل الذئب ليوسف وطلبوا منه أن يستغفر لهم والاستغفار علامة مسامحة، ولم يبادر يعقوب إلى الاستغفار لهم لأنه كان في شغل عنهم بتحقق الرؤيا وتمام النعمة والشوق إلى يوسف الذي غاب عنه سنين طويلة

والتم الشمل وتحققت الرؤيا يوم وصل ركب آل يعقوب مصر ودخلوها آمنين في رعاية يوسف العزيز في مشهد تتجلى فيه نعم الله ولمسات القدر التي تسوق الناس إلى ما قضى الله وقدر مما لا يحاسبون عليه وهو من فضل الله ورحمته فهو العليم الحكيم.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف:١٠٠].

ولنقف طويلاً اما هذا الشهد بما فيه من جمال الشمل الملتئم والنفوس المتسامحة، والإحساس بنعمة الله تعالى، يلخص ذلك قول يوسف عليه السلام

متحدثاً عن تمام النعمة بما كان من الرؤيا وتحقّقها، ومجيء أهله من البادية إلى أرض الخير في مصر، ولنقف طويلاً كذلك مع هذا الدعاء الذي انصرف به يوسف عمّن حوله، وتوجه إلى ربه سبحانه، وليّ نعمته، الذي أنعم عليه بألوان من النعم:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۞ ﴾ [يوسف:١٠١].

الفصل الثاني

نظرات في القرآن الكريم وتفسيره

- هذا القرآن
- المثقفون والقرآن الكريم
- القرآن الكريم والأسئلة الحرجة
- آفاق القرآن الكريم
- القرآن الكريم ووجود الإنسان
- القرآن الكريم والمعجزة المتجددة
- التفسير بين التقليد والتجديد
- التفسير بوابة الإعجاز
- القرآن الكريم والقراءات المتعددة
- التفسير المصور.

هذا القرآن

في شهر رمضان.. شهر القرآن الكريم.. ننشط فنقبل على القرآن الكـريم تلاوة، ويحرص كثير منا على أن يختمه أكثر من مرة.. طلباً للأجـر وطمعـاً في الثواب.. فهل عرفنا لهذا القرآن منزلته.. وهل أدركنا قـدره؟ أم ترانـا حولنـاه من منهج هداية يـنير النفـوس، ويهـدي الحيـاة.. إلى أوراق وأوراد.. نكررهـا ونلوكها.. ونحسب من بعدها أننا على شيء؟! وأرانـي أقـف هنـا مـع كلمـةِ حكمةٍ قرأتها: أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً!!.

هذا القرآن.. الكريم المجيد الحكيم المبارك.. المحفوظ في الصـحف المكرمـة المرفوعة المطهرة، على أيدي السفرة الكرام البررة.. في كتاب مكنـون لا يمسـه إلا المطهرون..

أين نحن منه؟

أين نحن من "القدْر" الذي أصاب الليلة التي أنزل فيها.

والقَدْر الذي أصاب الجيل الذي تلقاه.. تلقي سمع وطاعـة.. فتجسـد في حياته.. في دعوةٍ هادية، وعملٍ رشيد، وفتحٍ شمـل بقاعـاً في مشـارق الأرض ومغاربها؟؟

أين نحن من القرآن: الهدى والشفاء والبركة والنور..

كيف نضل وهو فينا؟ كيف نشقى وهو إمامُنا؟ كيف نشكو الضيق وهو بيننا؟ كيف تغشانا الظلمات وهو معنا؟ كيف تعمى أبصارنا.. وهو بصائر لنا..؟

كيف نقيم في ذيل قافلة الأمم ونحن به الهداة.. فهو لنا ذكر.. وللعالمين ذكر.. ولنا وللعالمين ذكرى؟

كيف نسمعه.. فلا تخشع قلوبنا.. ولا تدمع عيوننا.. ولا تلين جوارحنا؟ أتكون الجبال ألين من قلوبنا..

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾؟!

ألم يبين لنا القرآن الكريم ميزان الصلاح.. ومعيار الهداية بالتأثر به.. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؟

ألا ينبغي لنا أن نراجع أنفسنا فنسألها: هل أفدنا من كتاب الله ما يُتوقع؟ أم أننا جعلنا بيننا وبينه حجاباً مستوراً؟ وشغلتنا عنه الشواغل، فلا نقرؤه، وإذا قرأناه لا نتدبره، وإذا تدبرناه لا نعمل به؟

كم من "المثقفين" وأصحاب "الشهادات العليا" والذين في أيديهم مقاليد الأمر يخصص للقرآن الكريم.. كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه.. كم يخصصون له من الوقت للنظر والتدبر... ثم الاهتداء والعمل؟!

هل أزعم أننا لم نُفد من كتاب الله حق الفائدة..

هل أزعم أننا كمن يملك كنزا.. ويعيش حياة إملاق..

ويملك محطة لتوليد الكهرباء.. ويستضيء بشمعة.. ويملك حدائق وجنات.. ويعيش على كسرة من خبز جاف؟!

فهل من سبيل إلى كتاب الله.. الذي يهدي للتي هي أقوم.. نُقوّم به حياتنا.. ونهتدي به في رحلتنا إلى الله؟!

المثقفون والقرآن الكريم

هل أكون صادقاً إذا قلت: إن كثيراً من المثقفين والأدباء والعلماء من أبناء العرب والمسلمين في زماننا لم يكتشفوا القرآن الكريم بعد؟!

وأن أكثرهم ينظر إلى القرآن من بعيد نظرة مقدسة مشوبة بالغموض والهيبة والرهبة مما يجعل رؤيتهم له رؤية ضبابية لا يدركون بها حقيقته، كم منهم من يقترب من القرآن اقترابه من نصوص الأدب أو مؤلفات الفلاسفة أو كتب العلم؟ كم منهم من يقبل عليه بعقل مستنير، وقلب مفتوح، وعيون متأملة؟

إنني أزعم أن القرآن الكريم ما يزال لدى كثير من المثقفين والأدباء والعلماء قارّة مجهولة.. وكنزا موصد الأبواب.. فبعضهم.. بل كثير منهم لم يقرأه منذ سنين طويلة.. وإذا استمع إليه استمع في مطلع النهار للبركة.. أو استمع إليه في مجالس العزاء.. وقرأ الفاتحة على روح الميت ومسح بيديه وجهه اتباعاً لما يرى من العادة!

وبعضهم يقرأ القرآن طلباً للأجر والثواب ولا سيّما في شهر رمضان أو يخصص له من نهاره بعض الوقت ولكن من غير تدبر وتأمل..

وكأن القرآن الكريم أنزل ليكون تمائم وتعاويذ.. لا ليكون نوراً هادياً وبينات للفرد والأمة بل للبشرية جميعاً.

كم منا من ينظر إلى القرآن.. على أنه رسالة الله إلى البشر، وكم من أهل الثقافة والعلم والأدب يقف طويلاً أمام كون القرآن رسالة الله؟

هل أقول: إن كثيراً من أهل الثقافة والعلم والأدب بحاجة إلى مراجعة إيمانهم بالله، وتصورهم لله، فإذا صحّ هذا الإيمان واعتدل التصور تغيرت نظرتهم إلى القرآن، بل إن القرآن هو وسيلتهم التي ينبغي أن يتوسلوا بها إلى اكتساب النظرة السليمة إلى ربهم وإلى الوجود وإلى الغاية من الحياة.

إنني أدعو الأدباء والمثقفين وأهل العلم إلى اكتشاف القرآن، وإزالة الحواجز والسدود التي بينهم وبينه. وكلٌّ من موقعه وعلمه وثقافته وقدرته سيكتشف في القرآن عالماً جديداً، بل علماً جديداً يزيده بصراً بما اختص فيه أو وهب نفسه له.

ولا خوف على القرآن من النظر المتدبر المتأمل.. لأنه كلمة الله ورسالته إلى عباده كلهم، ولكل عبد من عباد الله مورد فيه إن أحسن الشرب منه والتدبر فيه اكتشف نفسه وعرف ربه وظهر له من الآيات ما لا يخطر على قلب بشر.

أيها العلماء والأدباء والمثقفون.. اكتشفوا القرآن.. اكتشفوا أنفسكم.. اكتشفوا الوجود.. اجعلوا لحياتكم معنى، ولوجودكم غاية، أبصروا ما في أنفسكم وما في الوجود من الآيات ولا يكون ذلك إلا بتدبر القرآن، والتأمل فيه.. والنظر من خلاله إلى الكون والحياة!.

القرآن الكريم والأسئلة الحرجة

إن من الأسئلة الملازمة للإنسان منذ وجوده على هذه الأرض: من أنا؟ من أين جئت؟ لماذا خلقت؟ وإلى أين أسير وما المصير؟

ولعل إلحاح هذه الأسئلة يزداد كلما ازداد علم الإنسان بما حوله من جنبات الوجود.. ليكتشف هذا الكون الفسيح البعيد الممتد امتداداً يعجز العقل عن تصوره.. وليكتشف أنه الكائن الوحيد الموجود في المشهود من هذا الكون!

فها هو يصل القمر.. فيجده خاوياً خالياً.. لا عمارة فيه، ولا كائنات تدب عليه.. وها هو يدب الصوت في الوجود ويرسل سفن الفضاء تجوس خلاله وترصد ما فيه ومن فيه.. ولكنها لم تعثر بعد على كائنات مرئية مشهودة! فأي وحشة تملأ قلب هذا الإنسان الذي يجد في نفسه ما لا يجده فيما حوله من الكائنات؟!

ويُغرق الإنسان نفسه في متع الحياة ويضع حجاباً على النفق الممتد الذي لا يعرف له نهاية.. لأنه لا يستطيع.. بل لم يستطع بعقله أن يجد إجابات مقنعة للأسئلة الحرجة الممتدة منذ كان إنسان على وجه الأرض!

إن وجود الإنسان.. وتفرد الأرض بما عليها ومن عليها لغز حقيقي! وقد حاول الإنسان بعقله أن يجد جواباً.. فكانت جهود الفلاسفة عبر الزمان.. بحثاً

عن أسرار الوجود.. فيما وراء الطبيعة وفي الطبيعة نفسها. ولئن أثمرت جهود الإنسان في البحث في الطبيعة علوماً مفيدة فاكتشف جوانب من الوجود، ووضع يده على كثير من قوانين الطبيعة، لئن كان ذلك فإن جهوده العقلية في البحث في ما وراء الطبيعة لم تشف غليلاً، ولم تقده إلى هداية، ولم تقدم له حلاً للّغز الكبير!

والجواب الحقيقي لكل الأسئلة المزمنة.. كان عبر رسالات رسل الله.. أولئك النفر الذين تعاقبوا على مر السنين وتباعد الأقوام برسالة واحدة إلى البشر..

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾..

ولم يكن لأولئك الرسل من مطمع لدى الناس.. لم يسألوهم على الخير الذي جاؤوهم به أجراً، ولم يطلبوا منهم ملكاً أو جاهاً.. بل كان لسان حالهم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكان لسان كل منهم

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾..

وتأمل سير أولئك الرسل.. تجدها سيراً صالحة، وتجدهم في أقوامهم مصابيح هداية.. لم يأمروا إلا بخير، ولم يدعو إلا إلى خير.

وتأمل حال الأقوام مع رسلهم واعجب من قوم يدعوهم داع إلى كل فضيلة، ويدعوهم إلى امتلاك البصيرة، فيقابلونه بالسخرية والاستهزاء،

والشتم والإعراض، والاتهام بالجنون والسحر والضلال المبين! بل بلـغ بقـوم لوط العمى أن قالوا:

﴿أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

وبلغ بفرعون أن يقول لقومه عن موسى

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾.

هذه رسالة إلى كل واحد منا.. هل وجدت إجابـة عـن الأسـئلة الحرجـة القديمة.. التي كانت مع أسلافك؟ هـل وجـدت بـرد الـيقين وامتلكـت النـور الذي تبصر به موطئ قدمك... والـدرب الـذي تسـير عليـه؟ كيـف تسـير في عماية والقرآن يكشف لك آفاق الوجود؟

آفاق القرآن الكريم

ما سبيل الإنسان الذي يحس بالوحشة في هذا الوجود.. إلى الأنس؟

وما سبيل الإنسان الذي يقف في مفترق طريق... إلى الهداية؟

وما سبيل الإنسان إلى أن يجعل لحياته معنى.. ولوجوده امتدادا..؟

إنه القرآن.. الذي يهدي للتي هي أقوم.. القرآن الذي تحيا به النفس.. وينقل المؤمن به والمهتدي به من الظلمات إلى النور.. ومن ضيق الدنيا.. إلى سعة الدنيا والآخرة..

إنه القرآن الذي يفتح الآفاق، آفاق الدنيا والآخرة، والغيب والشهادة، والجمادات والأحياء. أفق النشأة والوجود.. ولئن لم ترد تفصيلات في هذا الأفق فإن المعلومات التي يقدمها القرآن الكريم تعطي الإنسان تصوراً عن البداية.. وتترك له المجال للبحث الذي يكشف المعالم..

لم يكن أحد من الخلق حاضراً أو شاهداً.. يوم خلق الله السماوات والأرض فالذي خلق هو الذي يُعلمنا بما كان.. ويأتي الخطاب موجهاً إلى الذين يكفرون بالله.. ليقدم لهم معلومات عن بدء خلق الوجود وكأن هذا الخطاب خطاب تحدّ.. ودعوة إلى التفكر والتدبر..

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

من أين يمكن لبشر أن يقدم معلومات عن هذه المرحلة من عمر الوجود؟ كيف له أن يحدد خلق الأرض في يومين؟ وأن يحدد وظيفة الجبال (رواسي) وأن يتحدث عن البركة في الأرض هذه البركة التي تتجلى في تجدد العطاء.. فصلاً إثر فصل وعاماً إثر عام.. لا تمل الأرض من العطاء ما وجدت فوقها عاملاً يحسن التعامل معها؟ أوليس ذلك بعض مظاهر بركتها؟

ومن يستطيع الحديث عن تقدير الأقوات في الأرض إلا الذي خلق وقدّر؟ ولعل ممّا يلفت النظر في هذه الآيات أن جعل الرواسي والأقوات في الأرض وتقدير الأقوات جاء في أربعة أيام.. وأما خلق الأرض فاستغرق يومين!!

وسياق النص يوحي أن خلق الأرض كان أولاً.. وبعد ذلك كان خلق السماء التي كانت دخاناً وأن تقدير السماوات سبعاً كان في يومين وما تبع ذلك من تدبير أمر كل سماء وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الحافظة!

أليس في الآية ما يدل على عظمة الأرض وأهميتها؟ أوليس في ذلك ما يكشف سر تفرد الأرض عن غيرها مما وصل إليه علم الإنسان في هذا الوجود؟

ولننظر كيف كان الحديث عن خلق الكون سبيلاً إلى مخاطبة الذين كفروا ليعلموا عظمة الله ويؤمنوا به. وهذا الأمر تكرر في القرآن في أكثر من موضع ليوحي أن الذين سيصلون إلى الإيمان بالله بالتدبر في هذا الكون واكتشاف آياته هم "الكافرون" ومن الآيات التي دلت على ذلك من باب لفت النظر والتحدي:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

إن المؤمن يزداد بهذا الحديث عن الوجود ونشأته إيماناً بالله.. وتفكراً في خلقه.. وغير المؤمن يجد فيه سبيلاً إلى التفكر والنظر ليعرف شيئاً من أسرار هذا الكون.. وليعرف رب الكون وربه فيعبده بعد أن يعرفه.

القرآن الكريم ووجود الإنسان

تعالَ لنقترب من القرآن الكريم.. لنبصر آفاقه.. ولنجد الإجابات عن الأسئلة الحائرة.. التي تملأ حياة الإنسان بالشك والعتمة إن لم يجد لها الجواب الشافي.

أيها الإنسان..! إنك ابن آدم.. وآدم أبو البشر.. كائن خُلق من الطين.. وكان لخلقه موقف خاص، فهو كائن متميز.. الله رب هذا الوجود هو الذي خلقه.. وسبق هذا الخلق إعلام للملائكة.. هذه المخلوقات النورانية التي تملأ هذا الوجود..

من الطين خلق آدم.. وبنفخة ربانية كان إنساناً كان بشراً حياً قادراً سميعاً بصيراً.. مستخلفاً في الأرض.. ممكّنا من التصرف فيها، سخر له ربه ما في السماوات والأرض.. وها هي آثار التسخير والقدرة على التصرف تتجلى في زماننا بأبهى صورها.. وإن يكن الإنسان بها مستعلياً جاحداً بدلاً من أن يكون لربه شاكراً!

أيها الإنسان! ما خلقت عبثاً.. ولا وجدت سدى! بل أنت مجلى القدرة الإلهية.. ومشهد تجليات الأسماء الحسنى بربك الذي خلقك فسواك فعدلك، خلقك في أحسن تقويم، وعلمك ما لم تكن تعلم.

خلقت لغاية.. حددت لك.. أن تعبد ربـك.. وعبـادة ربـك لا تكـون في مسجد أو معبد فحسب! فالأرض كلـها جعلـت لـك مسـجداً والكـون كلـه معبدك الأكبر!

عبادة ربك.. تكون بأن تتذكر من أنت! وأن ترى آثار رحمة ربـك في كـل ما حولك.. تراها وتسمعها وتلمسها وتشـمها وتحسـها.. أوليسـت حواسـك كلها منافذ إلى هذا الوجود تدرك بكل حاسة آيات من آيات ربك المبثوثة مـن حولك؟ عبادة ربك تكون بتسخير ما أوتيت في المزيـد مـن الـوعي والبصـيرة والتدبر..

أيها الإنسان.. وعلى جوانب الطريق.. الصراط المسـتقيم الـتي بـه تبصـر حقيقة الوجود.. وتعرف نفسك.. على جوانب الطريق محطـات تشـغلك عـن غايتك.. وتعوقك في رحلتك.. يناديك المنادي..

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾

فلا وقت لديك للوقوف في المحطات الجانبية.. الطريق طويل لا نهاية له.. والدرجات في ارتقاء.. والنور في سطوع.. وأنت وما تنذر لـه نفسـك.. ومـن قعد عن المسير وشغل بالمحطات الجانبية انطفأ نوره.. وفقـد بصـره وبصـيرته.. وضل عن الطريق لأنه يفقد القدرة على تحديد الاتجاه!

في المحطات الجانبية على جنبات الصـراط المسـتقيم شـواغل وملـهيات.. تبهر العيون.. ويسـيل لهـا اللعـاب.. شـهوات.. شـهوات.. ألـوان وتصـاوير

ونهاويل.. نساء وخمر وحشيش وموسيقى وطعام وشراب.. وعطور.. وزينة.. ولكن ذلك كله وهم وغرور..

زينة ظاهرة.. زينة القشرة.. زينة البشرة.. حلوة البداية مرة النهاية.. تغريك ولكنها ترديك.. تتسلل إلى نفسك بالهوى لِيُهويك! أتريد أن تدرك حقيقة هذه المحطات الجانبية.. وعاقبتها؟! أخرج إلى مكب النفايات في أي مدينة.. تدرك الحقيقة..!

وانظر إلى مصير ما تأكل وتشرب.. ماذا يكون بعد ساعات وإلى أين يؤول؟!

أيها الإنسان! الصراط المستقيم نور.. يقودك إلى جنة.. تقيم فيها فلا تظعن، ونشب فلا نهرم، وتصح فلا تسقم! تأكل وتشرب وتتنعم! ولكن لا مكب للنفايات فيها! ولا فضلات تخرجها..! بل مع النور الذي أنت فيه.. يتحول ما تأكل إلى ريح طيبة طيب المسك!

القرآن الكريم: المعجزة المتجددة

كيف يكون إيمان المؤمن يقيناً لا تزعزعه الشكوك، ولا تغشاه الشبهات؟

للإيمان جانبان: نور القلب وحياته ببرهان داخلي يعلم به المرء أنه على الحق. وهذا وحده لا يكفي إذا لم يكن معه نور العقل القائم على البرهان القاطع الذي ينجلي به وجه الحق. والبرهان القاطع معجزة ييسرها الله تعالى على يد نبي من أنبيائه يعلم الناس بها أنه رسول الله حقاً.

فالمعجزة فرقان بين النبي والمتنبئ! وأما البرهان القلبي فقد يتسلل إليه الشيطان ببعض خوارق العادات التي توهم المرء وتجعله يظن أنه على الحق وهو عنه بعيد، فما يكون من السحرة وممارسي بعض الرياضات الروحية كاليوجا ربما يجعلهم يظنون أنهم مهتدون..!

وما يكون من بعض مدّعي النصوف من الخوارق تجعل بعضهم يرى نفسه فوق التكليف، ويحسب أنّه من الخاصة الذين لهم في بعض ما هو معلوم من الدين بالضرورة خصوصية ليست لغيرهم!!

فالمعجزة ركن الإيمان وأساسه، ومفتاح القلب للنور النازل في الكتاب، والمبثوث في جنبات الوجود. والمعجزة تجعل الرسول على يقين من رسالته، وتجعل المؤمنين به موقنين. وذلك ما كان من حواريي المسيح عليه السلام عندما طلبوا اليقين بمائدة تنزل عليهم من السماء!

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

ولذلك كانت المعجزة من لوازم النبوة والرسالة. وقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وتقوم حجة الله به على قومه وأهل عصره، ولا تقوم على من سواهم. وكانت معجزات الأنبياء تنقضي وتزول برحيلهم من الدنيا، وتصبح خبراً لا عينا، يؤمن بها المؤمنون بالرسل من بعده، ولكن لا تقوم عليهم بها حجة، بل بالمعجزة التي جاءهم بها رسول زمانهم.

وقد كان رسول الله محمد ﷺ رسولاً إلى الناس أجمعين منذ عصره إلى أن تقوم الساعة، فلا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته، فكيف تقوم الحجة على الناس ليؤمنوا؟.

كان كل نبي يبعث برسالة ومعجزة، وكانت المعجزة مستقلة عن الرسالة. فرسالة موسى التوراة ومعجزته العصا وما تبعها من معجزات أخرى.

ورسالة المسيح الإنجيل ومعجزته إحياء الموتى وشفاء المرضى وغير ذلك. ولكن رسالة محمد ﷺ كانت عين معجزته، فالرسالة هي القرآن الكريم، والمعجزة هي القرآن الكريم. فكانت المعجزة ممتدة امتداد الرسالة، باقية ببقائها.

وهذا يعني أن وجه الإعجاز الذي به يؤمن البشر ينبغي أن يكون بيّنا لهم بياناً تقوم عليهم به الحجة. وهذا يقضي أن يكون الإعجاز في القرآن الكريم

متجدداً ذا أوجه تتجلى لمن وُجّه إليهم القرآن الكريم عبر العصور وعلى امتداد البلاد. فما تجلى للعرب حين استمعوا إليه يختلف عما تجلى للفارسي أو التركي أو الرومي الذي لم يكن يعرف العربية، ولا أظن أحداً يشترط تعلم العربية قبل الدخول في الإسلام! وما يتجلى من أوجه الإعجاز للعرب ممن لا يملكون السليقة اللغوية أو الثقافة الأدبية يختلف عما يتجلى لمالك ذلك.

ملخص القول أنه لابد أن ينكشف للمؤمن في القرآن الكريم من أوجه الإعجاز مما به يؤمن برسالة محمد ﷺ إيمان من رأى عصا موسى ورأى إحياء المسيح للموتى وشفاء المرضى.

التفسير بين التقليد والتجديد

هل فسّر الرسول ﷺ القرآن الكريم كله؟ سؤال ورد على أهل العلم، وكان له جوابان: جواب بالإيجاب يقول: إن النبي ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه. وجواب بأنه ﷺ لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل!

فأي الجوابين أولى بالقبول؟ لو أن النبي ﷺ فسر القرآن كله لروي ذلك عنه، ولكان تفسيره القول الفصل الذي لا محيد عنه، ولما كان في تفسير القرآن مجال لمجتهد، ولما احتجنا عبر العصور إلى هذا الكم الهائل من كتب التفسير!

وإذا كان التفسير على أربعة أوجه – كما روي عن ابن عباس: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد لجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

فإن دلالة ذلك أن النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله بالمعنى المتعارف عليه للتفسير في علوم القرآن.

صحيح أنه فسر من القرآن الكريم ما يتعلق بالعبادات.. فبين للمسلمين كيف يقيمون الصلاة فقال: {**صلوا كما رأيتموني أصلي**} فكانت صلاته تفسيراً قولياً وعملياً للصلاة.

وبين للمسلمين كيف يحجون فقال: {**خذوا عني مناسككم**}.

وفسّر أخلاق القرآن الكريم تطبيقاً عملياً حتى كان كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها: {**كان خلقه القرآن**}.

وبين معاني بعض الآيات مما نجده في باب التفسير في كتب الحديث، وما ورد فيه يشهد أن النبي ﷺ لم يفسر القرآن كله. وكذلك الرجوع إلى كتب التفسير بالمأثور يشهد بذلك.

ولعل السليقة العربية السليمة التي كانت تمكن العرب من فهم الكلام أعفت النبي ﷺ من بيان جانب من القرآن الكريم احتاجت الأجيال التالية إلى بيانه فقام بذلك علماء التفسير.

وكذلك من القرآن الكريم. ما لا يعذر أحد بجهله لأنه من بدهيات الأمور لأنه يتحدث عن ظواهر وأمور لا تخفى، وذلك في القرآن الكريم كثير.

ومن التفسير ما لا يعلمه إلا العلماء. فمن هم العلماء هؤلاء؟

لقد وضعت شروط للمفسر في كتب علوم القرآن من إحاطة بتلك العلوم من أسباب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ وغير ذلك. ومن إحاطة بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة.. وقد وجدت هذه الشروط في كثير ممن اشتغل في التفسير من قبل. وأرى أن كثيراً من كتب التفسير فيها تكرار لا جديد فيه بل كان، تلخيصاً أو جمعاً لآراء مختلفة مروية عن مفسرين سابقين. فهل هذه الشروط لازمة في "المفسّر العصري"؟

إن الشروط المطلوبة في المفسر العصري مختلفة عما ذكر من قبل، لأنه لـن يخوض في استخراج الأحكام، ولـن يخوض في التصوير الفني، أو الصور البلاغية، أو أساليب الكلام، فذلك ما استكمله كثير من المفسرين. المطلوب في المفسر العصري أن يكون ذا علم واسع في مدلول الآيات التي يريد تفسيرها، حتى يكون كلامه موافقاً للنص من جهة ولدلالته في المشاهد المحسوس من آيات الله الكونية. هذا مع علمه باللغة العربية ودلالاتها وشيء من أساليبها، ليكون التفسير جارياً على أساليب العرب في كلامهم.

إن الجديد الذي يمكن أن يأتي به المفسّر العصري هو ما يتصل بآيات الله تعالى الموجودة في القرآن الكريم والتي تشير إلى آيات الله في الكون المفتوح وبالوقوف عليها يُفهم كثير من آيات القرآن الكريم ويزداد بها المؤمن إيماناً، بل تكون سبباً من أسباب دخول الناس في دين الله تعالى.

التفسير بوابة الإعجاز

لم يفسّر النبي ﷺ القرآن الكريم تفسيراً كاملاً وهذه أبواب التفسير في كتب الحديث شاهدة على ذلك، تجد فيها شذرات من تفسير القرآن ولا تجد تفسيراً شاملاً. وما ورد من تفسير نبوي كريم قولي أو عملي شمل العقيدة والعبادات والمعاملات، وكان خلقه القرآن، ولكن بقي في القرآن الكريم مواضع كثيرة سكت النبي ﷺ عنها، ذلك أن الخوض في تفسيرها في عصره سيكون فوق مستوى إدراك من عاش معه، لأنها آيات تتصل بالكون وقوانينه، والعلم ومدركاته، وظلت تلك الآيات شواهد إعجاز تتجلى لأجيال تالية تعلم بها أنه لا يمكن أن يكون هذا القرآن الكريم مفترى من بشر، لأن ما وصل إليه علم البشر في عصره من أهل الاختصاص لم يكن قد وصل عند نزول القرآن الكريم إلى ما ورد من إشارات إلى آيات كونية.

وهذا بعض أوجه الإعجاز الكامنة المذخورة للأجيال التالية لتعلم أن لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله.

وهذا يعني أن التفسير، الذي هو سعي إلى فهم مراد الله عز وجل من كلامه بوابة إلى الإعجاز الدال على كون القرآن الكريم من عند الله. ولذا لابد لكل عصر من تفسير يكشف ما لم يكشفه علماء العصر السابق من الآيات المنطوية على لآلئ المعرفة وأسرار الكون. وتفسير كل عصر يضمّ

التفسير المأثور من حديث للنبي ﷺ أو فهم لصحابته مما لا مجال للاجتهاد فيه، في شأن العقيدة والعبادة وأصول المعاملات، ويضيف إلى ذلك ما يتجلى للبشر من آيات الله في الأنفس والآفاق يتبينون بهاأن كتاب الله حق. أوليس ذلك هو ما يوحي به قول الله تبارك وتعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾.

ومن هنا لا أرى أن يظل القرآن الكريم حبيس أفهام عصور سابقة في أمور تتصل بعلم لم تصل إليه عقول أهل العلم في تلك العصور.

ويكون من العبث العلمي اختصار تفاسير سابقة أو الاعتماد على عدد من التفاسير نقلاً واختياراً وتقديمها في عصرنا على أنها تفسير القرآن الكريم.

التفسير هو صورة عن فهم المفسر لكلام الله في عصره، وهذا الفهم متجدد بتجدّد المعرفة الإنسانية، وبالتفسير الذي لا تعسف فيه ولا تكلف، ولا يُحمّل النص فوق ما يحتمل لغة ومضموناً نقف على آيات الله في الكون التي تزيدنا إيماناً بآيات الله في كتابه المسطور.

القرآن الكريم والقراءات المتعددة

إن من خصائص القرآن الكريم أن جعله الله تعالى رسالة ومعجـزة في آنٍ واحد. على خلاف ما كان مع الأنبياء السابقين الذين كان كل نبي منهم يؤتى رسالة ومعجزة مستقلة عنها، ذلك أن كل نـبي كـان يبعـث إلى قومـه خاصـة، وكان النبي محمد ﷺ خاتم النبيين، فكان لابدّ أن تظل معجزته من بعده شـاهدة على رسالته.

هذه الخصيصة جعلت القرآن الكريم كتاباً مفتوحاً حمّال أوجه قابلاً للفهم في كل عصر فهماً يكون حجة على أهله، ويثبت لهم به أن محمـداً رسـول الله، وأن القرآن الكريم تنزيل من عند الله.

وإن مما يلفت النظر أن النبي محمداً ﷺ لم يفسّر القرآن الكريم كلـه تفسـيراً شاملاً تاماً، ومن شاء فليرجع إلى كتـب الحـديث لينظـر مـا أثـر عنـه ﷺ مـن تفسير، ثم ليرجع بعد ذلك إلى كتب التفسير التي تسمى بكتب التفسير المـأثور ليرى أن أكثر ما يروى فيه هو عن الصحابة والتابعين، وهي أفهام لا نصوص مرفوعة في معظمها إلى النبي ﷺ.

ولعل من المفيد أن نقف على دعاء الـنبي ﷺ لعبـد الله بـن عبـاس (**حـبر الأمة**)، فقد دعا له ﷺ بقوله:

{**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل..**} ولم يقل له تعالَ يا ابن عباس لأعلمك تأويل القرآن، أو لأفسره لك، بل أوكل تعليمه التأويل إلى معلم الإنسان، الذي علمه البيان، وعلمه ما لم يعلم:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾﴾.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾.

وهذا التعليم الرحماني للإنسان ممتد، فاسم الله العليم يتجلى في حياة البشر بما يكتشفونه من العلوم، وأنى لهم أن يكتشفوها لولا التعليم الرحماني لهم؟.

وتمتد الصلة بين الإنسان والقرآن الكريم عبر القرون جيلاً بعد جيل، كل جيل يقرأ القرآن الكريم في منظور ما وصل إليه من علم ومعرفة لنفسه وللكون لتتجلى له حقائق الوجود، ثم تتجلى له حقائق القرآن الكريم التي فتحت نوافذ الإدراك للإنسان قبل أن تتجلى في حقائق علمية، فيعلم الإنسان الذي اكتشف بالجهد والبحث ما لم يعلمه السابقون أن هذا القرآن الكريم من عند الذي يعلم السر وأخفى، ومن عند من خلق الوجود كله:

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؟!

إن النص، أي نص، يحمل خصائص قائله، ويدل عليه، ويكشف علمه، وأي نص بشري لابد أن يحمل خصائص القائل وخصائص البيئة والثقافة ومستوى الفكر للقائل وللبيئة.

فإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا أنه لا يحمل خصائص من شخصية محمد ﷺ وثقافته وبيئته. فقد جاء فيه ما لم يكن يعلمه هو، ﷺ، ولا قومه، بل حوى من العلم ما لم يكن لأحد من البشر في عصره علمه به. ففيه حديث عن الكون وخلقه، والملأ الأعلى وشؤونه، والسماوات العلى وأحوالها، والغيب وما فيه، والكون وأسراره، والخلق وآياته، والنفس وأسرارها، والموت وغمراته، والبعث وما بعده من مراحل حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. وقد نص القرآن الكريم على ذلك

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ .

ويظل الحوار بين القرآن الكريم والبشر الذين يتلقونه مفتوحاً ممتداً يتجلى لهم في آيات الله التي يدركها أولو الألباب وأولو العلم وهي آيات ليست مقصورة على جانب البلاغة والبيان، بل هي آيات في النفس والآفاق يعلمون بها أن هذا النص الكريم ليس من صنع بشر بل هو تنزيل من حكيم حميد.
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

وكم يخطئ بعض الباحثين في القرآن الكريم حين يجعلون من أنفسهم أوصياء يحجرون على الباحثين آفاق البحث، ويجمّدون فهم القرآن الكريم على عصور سابقة وعلماء سابقين بذلوا الجهد وفق طاقتهم ومقتضيات عصرهم، ولكل عصر مقتضياته. ولو بحثنا في هذا الذي وصلوا إليه من فهم للنص القرآني لوجدنا في بعضه قصوراً، وفي بعضه نقصاً.

التفسير المصور

إن من فضل الله على البشر ما ينكشف لهم من قوانين الوجود المسخرة لهم، هذه القوانين التي تزيد المؤمن إيماناً، وتزيده يقيناً أنه على الحق؛ مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

وإن ما وصل إليه البشر في مجال التصوير الحي: السينمائي والتلفزيوني يمكن أن يسخر في الدعوة، والكشف عن آيات الله. ولعل ما يلفت النظر في القرآن الكريم أن كثيراً من آياته هي آيات كونية. والأمثلة على ذلك كثيرة أورد منها قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هذه الآيات الكريمة وكثير في القرآن مثلها نوافذ على آيات الله في الكون، والله عز وجل يقدمها إلى البشر آيات أي براهين على صدق نبوة محمد ﷺ، ولتكون دليلاً لهم إلى الله تبارك وتعالى يعرفونه من خلالها، ويدركون عظمته من التفكر فيها. والنظر فيها تدبر في وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وإن مما يمكن أن يستفاد من منجزات العصر الحديث في مجال الدعوة إلى الله تقديم ما أسميه التفسير المصور، وأعني به أن تعدّ صورة حيّة مرافقة للتلاوة تعطي معاني الآيات من خلالها، وذلك فيما يمكن أن يقدم من مشاهد قابلة للتصوير.

وأضرب على ذلك مثلاً من سورة الرحمن، وعليها يقاس:

تعرض على الشاشة الآيات مع صوت القارئ وتكون خلفية الصورة مشاهد دالة على المعاني:

فعند قراءة القارئ:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾
تُعرض الآيات ثم تعرض صورة للقرآن الكريم، ثم صور تمثل خلق الإنسان في مراحله المختلفة جنيناً ووليداً وطفلاً وشاباً وشيخاً.. ثم مشاهد للإنسان في تعامله الذي تظهر فيه حاجاته في مختلف شؤون حياته. وعند الحاجة تعاد

قراءة الآيات بصوت القارئ نفسه أو قارئ آخر من غير ظهورها مكتوبة على الشاشة ويكتفى بالمشاهد الحية التي تعطي تفسيراً للآيات.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

وتكون خلفية الآيات الشمس في شروقها وغروبها وما بين ذلك، ثم صورة القمر في مراحله المختلفة هلالاً فتربيعاً فبدراً.. وهكذا تمضي الآيات تعرض مكتوبة ومتلوة ومصاحبة بالمشاهد الحية التي تقدم الآيات المتلوة كما تتجلى في الكون ليكون لها تأثير يضاف إلى تأثير الآيات المكتوبة والمتلوة. ولتقدم القرآن الكريم مفسّراً بالصورة الحية المشاهدة.

هذه فكرة أقدمها إلى من يملك تحويلها إلى واقع يقدم القرآن الكريم في حلة جديدة تواكب تطور العصر، وتخاطب الناس بلغة الصورة التي هي من أبلغ اللغات.

الفصل الثالث

ولاة الأمور في القرآن الكريم

ولاةُ الأمور في القرآن الكريم

حدثنا القرآن الكريم عن شخصيات بشرية عديدة..

فكان منهم الأنبياء.. وأتباعهم من الصالحين المستقيمين على طريق الله..

وكان منهم عتاة جبابرة.. تمردوا على أمر الله.. واتبعوا أمر كل جبار عنيد..

وممّن قص الله عز وجل علينا نبأهم ملوك ووزراء.. أورثهم الله الأرض، وآتاهم الملك.. وإذا نحن تدبرنا في أحوال هؤلاء.. وجدناهم صنفين:

أولهم آمن وعرف أنه مستخلف فيما أوتي.. وكان من هؤلاء الملوك أنبياء..

وثانيهم صنف غرته الحياة الدنيا.. فكفر بالله رب العالمين.. وجحد نعمته..

وما قص الله عز وجل علينا من شيء إلا لنتدبره، ونرى ما فيه من العبر والحكم، فلنقف على شخصيات ولاة الأمر في القرآن الكريم.. ولننظر في صفات كل منهم.. وملامح شخصيته..

حدثنا القرآن الكريم عن ملوك ووزراء من المؤمنين الصالحين، وهم: ذو القرنين، ويوسف، وداود وسليمان وبلقيس – التي أسلمت بعد كفر. وحدثنا عن ولاة أمر كافرين وهم: صاحب إبراهيم عليه السلام الذي حاجه في ربه، وفرعون، وهامان، وعزيز مصر، الذي لن نتحدث عنه لأنه لا تبرز في القرآن

الكريم صورته باعتباره ولي أمر بل باعتباره زوجاً أفلت زمام زوجته من يده..

الصالحون من الملوك والوزراء:

ذو القرنين:

إن الذي يهمنا من أمر ذي القرنين ما ورد ذكره في القرآن الكريم بعيداً عن الأخبار التي لم تثبت سنداً.. فذلك الذي في القرآن الكريم من صفاته هو المقصود لأخذ العبرة.. ولذلك لا يهمنا أن نسأل: من هو؟ أو ما اسمه؟ وأين كان؟ وفي أي عصر كان؟ فتلك أمور خارجة عن المراد الإلهي، وفي البحث عنها تكلّفٌ لا فائدة ترجى منه.

لم يذكر لنا القرآن الكريم صفة ذي القرنين السياسية.. وهل كان ملكاً أم لا! وإنما الذي ذكر أنه مكن الله له في الأرض، وأمدّه بأسباب القوة، وقد شرّق في الأرض وغرّب.. مما يعني أن دولته امتدت على مساحات واسعة من هذه الأرض. فكيف كانت سيرة هذا الرجل الصالح في حكمه؟

قال الله عز وجل:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٦- ٨٨].

تفيدنا هذه الآيات أنه أقام شرع الله الذي تلّقاه.. ويدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

فلم يكن منهجه الإفساد في الأرض.. بل اتبع ما يرضي الله عز وجل من الإحسان إلى المحسن، ومعاقبة المسيء، فهو إمام محسن عادل ملتزم بشرع الله تعالى.

وإذ كان ذو القرنين لا يظلم من تلقاء نفسه.. فإنه ينصف المظلوم من الشعوب.. فإن لم يكن قادراً على قهر الظالم.. جعل بينه وبين المظلوم حاجزاً يحميه. وهذا ما كان من أمره مع القوم الذين كانوا بين السدّين:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٣- ٩٥].

إن مما يلفت النظر في صفات هذا الإمام العادل أنه يسعى إلى قطع الفساد في الأرض، ولم يكن من همه في الفتح استغلال الشعوب، أو جباية الأموال منها، بل كان داعياً هادياً.. فعندما عرض عليه القوم الذين بين السدين أن يجعلوا له مالاً لقاء بناء السدّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج تعفف عن ذلك.. اكتفاءً بما آتاه الله، ولكننا نجد لديه خطة طيبة لاستثمار طاقة هذا الشعب الذي يعيش في حالة فطرية، ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وذلك بالاستعانة بقوّتهم لا بمالهم ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾.

ويلفت النظر في صفاته أنه وقد أنجز بناء السد على الصورة التي ذكرها القرآن الكريم لا يغتر بما تحقق على يديه.. بل يرد الأمر إلى ربه الذي مكن له في الأرض وآتاه أسباب القوة.. وبسط له في الرزق؛ فيقول ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

ثم هو مدرك لحقيقة الدنيا.. ولو كانت ردماً من حديد ونحاس..

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

إن ذا القرنين نموذج للفاتح الصالح المصلح الحامل للخير، والمدافع عن حق الإنسان في الحياة الآمنة..

أو لم تكن تلك هي صورة الفاتحين المسلمين الهداة المهتدين الذين حملوا الخير لشعوب الأرض؟!

يوسف عليه السلام*:

إذا كانت تلك هي صورة ذي القرنين.. فإننا مع يوسف عليه السلام نجد صورة أخرى.. فإنه لم يكن ملكاً.. بل أوتي شيئاً من الملك، وهو الولاية على خزائن الأرض.. أو ما سمّاه القرآن الكريم في مواضع من قصته (العزيز).

ولم يكن يوسف فاتحاً أو قائداً حربياً.. كذي القرنين.. بل كان مقيماً في مصر، ارتفع شأنه من سجين مظلوم إلى رجل ممكنٍ له في الأرض يتبوأ من

* كتب هذا البحث قبل سنوات من كتابة: لمسات قدرية في سورة يوسف.

مصر حيث يشاء. فكيف كانت سيرته في حكمه.. وهل غيرته السلطة.. أو غرّه ما أوتي من الحكم؟

لقد كان يوسف عليه السلام رجل سياسة ناجحاً.. وقد نجحت سياسة المالية التي اختطها لمصر في سنوات المحنة الاقتصادية.. ولا يقص علينا القرآن الكريم تفصيلات من تلك السياسة. بل نرى صورة يوسف العزيز من خلال علاقته مع إخوته الذين أصابتهم وأهلهم تلك المحنة.. فجاؤوا لينعموا بآثار السياسة الاقتصادية لعزيز مصر الذي لم يعرفوا من هو إلا بعد حين.

إن في شخصية يوسف العزيز أموراً تلفت النظر.. فإذا وجدناه لا يسارع في الانتقام من إخوته وقد وقعوا تحت يده.. بل يكيد لهم كيداً خفياً.. فإننا نجده لا يندفع في إحضار والده إليه ليخرجه من المحنة التي كان فيها بسبب فراقه له. فهل كان يوسف في ذلك ينفذ أمراً إلهياً.. ليبلغ ابتلاء يعقوب مداه.. أم كان ذلك من تلقاء نفسه.. أراد به أن يمهد السبيل إلى تحقيق الرؤيا التي ابتدأت بها محنته؟!

على كلا الوجهين.. تبرز لنا في شخصيته صفة الحلم والتأني في الوصول إلى المطلوب فلا يسارع في الانتقام من إخوته.. ولا يندفع في رفع المحنة عن أبيه.. بل نراه يسهم في دفع هذه المحنة إلى مداها بطلب شقيقه لينضم إليه:

﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩].

فكيف استطاع يوسف أن يجمد مشاعر الانتقام..؟ وكيف استطاع أن يعرف أخبار أبيه وشقيقه من إخوته من غير أن يكتشفوا حقيقة شخصيته..؟

إنه الحلم والصبر اللذان تعلمهما في رحلته الطويلة من الجُبّ إلى السجن.. إلى القصر.. عزيزاً لمصر!

وإذا كان قدوم إخوة يوسف إليه واكتشافه لما هم عليه من حال.. هو الفصل الأول من نهاية المحنة.. و"تحقيق الرؤيا" فإن ورود شقيقه عليه هو "الفصل الثاني" وفي الفصل الأول عرف يوسف إخوته وهم له منكرون، وفي الفصل الثاني كشف عن شخصيته لشقيقه.. واستكتمه الخبر.. ليتم أمر الله في حديثه المقدر. وكان ما كان من أمر صواع الملك، واتهام الأخوة بالسرقة، وبلوغهم ما بلغوا من خوف العقوبة.. ثم ما علموا من الحرج الجديد مع أبيهم باحتجاز أخيهم، كل ذلك يحدث ويوسف ينظر إليهم بصبر وأناة وحلم، ويرى تحقيق وعد الله عز وجل ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] فهاهم يذكرون يوسف بسوء في حضرته ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ﴾ ويأتي ردّ يوسف عليهم بما فيه شيء من شفاء ما في نفسه.. ولكن مع كظم للغيظ:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف ٧٧].

ولا يلين قلب يوسف لتوسلات إخوته وما سيصيب أباهم من أثر افتقاد ولده!

فهل كان ذلك عقوبة يوقعها على إخوته جزاء ما اقترفت أيديهم بحقه؟

ولكنها عقوبة تصيب أباه.. كيف لا.. وقد فقد أحب أولاده إليه؟

وتبلغ المحنة أقصاها حين عاد إخوته إليه في حال لا يحسدون عليها..

لقد ذاقوا وبال أمرهم.. وبلغ البلاء بأبيهم أقصى درجاته.. وعند ذلك فقط يكشف لهم عن نفسه.. ويبرز التسامح بعد العتاب.. لم يكن يوسف يريد انتقاماً.. بل كان ما كان منه عتاباً لهم على ما فعلوا.. فلما تحقق العتاب جاء الصفح.. وصفت القلوب.. وقال لهم بلسان القادر الذي يملك العفو:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وها هو يرى تحقيق رؤياه وقد خرّ له أبواه وإخوانه له ساجدين!

وإذا كانت أبرز ملامح شخصيته يوسف العزيز.. الصبر والأناة والحلم والعفو عند القدرة على الانتقام فإن فيها أمراً آخر.. هو إدراك حقيقة الدنيا وما يُؤتى الإنسان فيها.. فلم يغره المُلك.. ولم تعلُ نفسه وهو يرى تحقيق رؤياه.. بل نراه يدعو بهذا الدعاء الكريم.. يناجي ربه.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الاعتراف بفضل الله، وإدراك حقيقة الدنيا.. وإيثار ما عند الله.. تلك هي الملامح التي تضاف إلى ما سبق من شخصيته يوسف العزيز.

داود عليه السلام:

لم يذكر لنا القرآن الكريم أخباراً مفصلة عن داود عليه السلام.. فهو

يذكره وقد قتل جالوت

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]

ومع الملك عُدّته

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١١]

فمع الملك ذِكرُ الله المنعم.. ذلك الذكر الذي تُردد صداه الجبال والطير..

هذا النبي الملك يذكر لنا القرآن الكريم عنه حادثة مغزاها أنه وقع في خطأ لم يفصله.. ولا يعنينا تفصيله.. وإنما يعنينا كيف يتصرف النبي الملك وقد تبين له أنه وقع في خطأ! هل يصر عليه.. أم يخر راكعاً وينيب مستغفراً؟! لقد خر راكعاً منيباً.. فغفر الله له وأوحى إليه وصية هي لكل من آتاه الله الملك..

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص ٢٦].

إن صورة داود النبي الملك.. هي صورة المستخلف في الأرض الذي يحكم بالحق ويُعرض عن الهوى.. وتلك هي الصورة المطلوبة في الحاكم المتبع لشرع الله الذي يسير في الناس سيرة العدل.

سليمان عليه السلام وملكة سبأ:

ورث سليمان أباه داود.. فكان مثله نبياً ملكاً.. وآتاه الله من الآلاء ما استدعى أن يخص آل داود بطلب الشكر.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ .

وقد سخر الله تعالى له من الطبيعة الريح تجري بأمره رخاء حيث أراد.. وأجرى له عين النحاس كما آلان لأبيه الحديد من قبل.. وسخر له الجن يعملون بأمره ما يشاء يشيدون له عجائب البنيان، وينحتون التماثيل، ويبنون المحاريب، ويصنعون القدور وآنية الطعام.. وآتاه في ذلك ملكاً لم يؤته أحداً غيره.. وعلمه منطق الطير والحيوان، فهو يفهم عن النملة قولها.. ويخاطب الهدهد وغيره من الطيور، وكان لهذا النبي الملك جيش عجيب من الجند:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

فماذا كان موقف سليمان الملك وهو يرفل في هذه النعم ويرى من حوله هذه الجنود؟ ها نحن نسمعه هو وداود ينطقان بلسان الحمد من قبل ومن بعد:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

ونرى سليمان وقد فهم عن النملة مقالها لا يأخذه الغرور بل ينيب إلى ربه وينطلق لسانه مترجماً ما في قلبه فيقول:

﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

ويقف سليمان النبي الملك أمام جندي من جنوده فإذا به يفوقه في بعض العلم، ذلك هو موقفه مع الهدهد.. ويقف المرء طويلاً على قول الهدهد لسليمان الذي كان غاضباً لغيابه من غير إذن

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾!!

يقال هذا لسليمان مع ما آتاه الله من العلم وسخر له من المخلوقات.. ذلك لأنه مع كل ما أوتي يظل بشراً!

ونقف من خلال عيني الهدهد على صورة ملكة سبأ مع قومها.. وشأنها في ملكها قبل إسلامها مع سليمان لله رب العالمين! والذي يلوح من شخصية ملكة سبأ لجوؤها إلى الشورى في كل أمر، فلم تكن ملكة مستبدة

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].

إن أبرز ما يبدو لنا في شخصية هذه الملكة الحكمة التي تجلت في إرسال الهدية قبل اتخاذ القرار فيما تفعله!

ولما قررت ملكة سبأ أن تمضي إلى سليمان في ملكه.. وكان سليمان قد علم خبر عرشها من الهدهد

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل: ٢٣]

فكان ما كان من إحضار ذلك العرش ليكون حضوره من اليمن مفتاحاً لقلبها.. فتؤمن بالله رب العالمين! وتتجدد لنا صورة النبي الملك الشاكر وقد رأى نعم الله عليه تكتمل.. ورأى عرش بلقيس بين يديه فيقول:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وهذا القول يذكرني بما سبق من سلفين كريمين: ذي القرنين ويوسف، ليكونوا نماذج خيرة لكل من يؤتيه الله الملك، ويغدق عليه العطاء، فيعرف حق الله، ولا تغره الحياة، بل يقرّ لربه بالفضل، ويبادر إليه بالشكر. وتكتمل الصورة بملكة سبأ التي رأت من نعم الله على سليمان ما أيقنت أنه نبي ملك، لا ملك فحسب، وها هو يدعو إلى التوحيد.. فتستجيب له.. بعد أن تزول الغشاوة عن عينيها.. فينطلق لسانها قائلة:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

الطغاة من أولي الأمر:

كم مرّ على هذه البشرية من الطغاة والمتجبرين في الأرض..؟!

وكم ظهر في الناس من مُستعلٍ ومستكبر.. يسفك الدماء ويمتهن كرامة الإنسان، ولا يقيم إلا لهواه وزناً؟!

من بين هؤلاء المستكبرين.. ذكر القرآن الكريم اثنين هما:

الملك الذي حاجّ إبراهيم في ربه.. وفرعون..

فأما صاحب إبراهيم فهو ملك ألقى الله إليه مقاليد الرعية في بلاد لم يحددها القرآن الكريم، ولم يذكر لنا اسمه ولا لقبه.. لأن ذلك ليس من مقاصد ذكر خبره.. إنما الذي يبرزه القرآن الكريم هو الموقف الذي وقفه هذا الملك بادعاء الربوبية الكاذبة.. ولعل الذين فعلوا ذلك عبر الزمان قليل.. فهناك من ادّعى الربوبية في صورة غير مباشرة.. بتحليل الحرام وتحريم الحلال.. ولكن الذين أعلنوا ذلك على الملأ وزعموا أنهم أرباب يقوم بما يقوم به رب العالمين – سبحانه – ... فذلك النادر في تاريخ البشرية.

صاحب إبراهيم عليه السلام:

آية واحدة في سورة البقرة أعطتنا مشهد حوار بين إبراهيم عليه السلام وذلك الملك المغرور الذي بدأ الحوار مدّعياً.. ثم لم يلبث أن صار مبهوتاً لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام – بما آتاه الله من الحكمة – انتقل في حواره معه من أمر مارى فيه إلى أمر لا يستطيع فيه جدالاً.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

إنه موقف واحد في مشهد واحد.. نطل من خلاله على هذا الملك المستكبر ثم يختفي.. وهذا المشهد يكشف لنا منهج هذا الملك في ملكه منهج الاستعلاء والضلال المبين.. ولعل الهدف من إبرازه هو بيان وجود هذا النموذج في التاريخ الإنساني.. ولكننا نجد الأمر أكثر وضوحاً وسوءاً في شخصية أخرى هي شخصية فرعون!

فرعون:

إذا كان أمر صاحب إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد قضي في آية واحد.. فإن أمر فرعون أشدّ وأطغى، ذلك أنه اجتمع في شخصيته ما تفرق في غيره من الطغاة، فكأنه كان نموذجاً شديد الشناعة لمن يؤتيه الله الملك.. وقد ترددت أصداء قصته في سور شتى من القرآن الكريم.. مختصرة حيناً.. ومفصلة حيناً آخر، ومقترنة مع قصة موسى وبني إسرائيل في أكثر الأحوال.

إن أول ما يبرز لنا في شخصية فرعون الطغيان.. وقد وُصف بها في القرآن الكريم ثلاث مرات في صيغة واحدة

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧].

ولهذا الطغيان علامات ظهرت في كلام فرعون وفي سيرته مع الرعية..

فأما طغيان القول فيتمثل في هذه الدعوى العريضة التي نطق بها.. ولا يدري المرء هل كان صاحياً أم أنه كان مخموراً وهو يقول لقومه الذين جمعهم ليقول لهم بعد أن جاءه موسى بالبينات

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

والعجب لا ينقضي من وصف فرعون نفسه بأنه الرب الأعلى! فأي علوّ وهو بينهم، قريب منهم.. يعرفون أباه وأمه.. وله زوجة كما لهم زوجات.. يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون؟ فكيف يكون ربا لهم؟ بل كيف يقول:

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

أتراه وقف على شرفة قصره، ورأى الجنان من تحته، وفروعاً من نهر النيل تجري خلالها، فأصابته الكبرياء بمرض.. ورفعه الغرور إلى مبلغ أن ينطق الشيطان على لسانه، فيلبّس على قومه، ويصدقوا مقالته، ويطيعونه فيما هو فيه، وكأنه هو الذي أجرى الأنهار، وأنشأ الجنائن!

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٤].

ولم يكتف فرعون بادعاء الربوبية.. هبط درجة أدنى في درك الضلال بادعاء الألوهية، وطلب من قومه حقوق هذا الادعاء، وجعل من نفسه سدّاً بينهم وبين إبصار الحقيقة، وتربّص بمن يؤمن منهم بموسى وما جاء به كلَّ سوء. فهو يعلن في الملأ ذلك:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٢٨].

ولا يدري المرء أكان سامعوه مصدقيه في دعواه.. أم كان بعضهم ينظر إلى بعض والعجب يملأ نفوسهم، ولكن يحول بينهم وبين قول الحقيقة ما هم فيه من شراك الدنيا، وما أغرقهم فيه من متع الحياة.

وتلوح لنا في ظلال شخصية فرعون، الطاغية الأكبر، شخصية وزير السوء هامان، الذي كان له عوناً في حربه لموسى وقومه، وفي إيقاع الأذى بهم، فقد طلب منه فرعون أن يوقد له على الطين ويجعل له صرحاً عالياً لينظر إلى إله موسى.. وجاء الطلب مرة أخرى ليبين أن المقصود هو الوصول بهذا الصرح إلى السماوات.

وقد اقترن اسم هذا الوزير باسم فرعون في أكثر من موضع ليقدم النموذج السيئ للوزير الذي يكون عوناً للحاكم على الطغيان، ويجري في هواه، من غير أن يبصره بعواقب الأمور.

لقد طغى فرعون فادعى الربوبية والألوهية ولم يكتف بذلك بل وقف في وجه كل من أراد الإيمان.. بدءاً من موسى عليه السلام الذي قال له:

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ثم يشتد موقفه حين ينكشف سحر السحرة وينقلبون من حزبه إلى حزب الإيمان فينطلق بهذا الوعيد الهادر:

﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ٧١ وانظر الأعراف ١٢٣- ١٢٥].

وقد كانت ثمرة الوعيد الصدُّ عن سبيل الله. وانكماش الناس عن الإيمان:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

لقد اجتمع في فرعون من الصفات ما جعله إماماً للضلال.. ففيه الطغيان وادعاء الربوبية والألوهية والفسق والخطيئة وتزيين سوء العمل له، وصدُّه عن سبيل الهدى، والإسراف في الظلم، فماذا نتوقع منه؟ أيكون غريباً عليه أن يستضعف بني إسرائيل فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم؟

أيكون غريباً أن يقول هو وجنده الظلمة

﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]

وإن من أعجب أموره على ضلاله أن يدعي الهدى والرشاد، وأن يصف نبي الله الكريم بكل نقيصة. ففي ذلك الجدال الذي دار بين مؤمن آل فرعون من جهة وفرعون وملئه من جهة أخرى نجده يقول:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ويقول: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ويلجأ فرعون في دعواه إلى تسفيه أمر موسى والرد على ما جاءه به من الآيات بأن يقول:

﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [النمل: ١٣].

ويقول للسحرة بعد إسلامهم متهماً إياهم بالتواطؤ مع موسى:

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ﴾ [طه: ٧١، الشعراء ٤٩]

ولا يكتفي بوصف موسى بكبير السحرة، بل يصفه مرة أخرى بأنه مسحور

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠١].

ويصفه بالكذب:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٢٨].

ويصفه بالجنون:

﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]

ولم يكن هذا كله في مجلسه مع حاشيته، بل كان حملة إعلامية امتدت آثارها في أرجاء مملكته، فبعد أن انكشف أمر السحرة وخروا ساجدين لله رب العالمين، خشي أن يكون لإيمانهم آثار في الشعب الذي استخفه فأطاعه،

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٣- ٥٦].

لقد طمست قلوب فرعون ومن شايعه.. وعميت أبصارهم عن إدراك نور النبوة، وآيات الرسالة.. وقد قامت الحجة عليهم.. لا بآية واحدة بل بآيات متتابعة، كلّما ذهبت واحدة تلتها الأخرى..

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف: ٤٨].

ومع ذلك كله لم يؤمنوا.. ولم يرفعوا العذاب عن بني إسرائيل.. لقد كانوا يعطون الوعد بالإيمان إن رُفع عنهم بعض ما أصابهم من عذاب تلك الآيات فإذا رُفع عادوا إلى كفرهم وعنادهم.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠- ١٣٥].

فهل بقي لفرعون وقومه بعد هذا من حجة؟

ونقف على مشهد فرعون في لحظات الغرق، وقد دهمه البحر هو وجنده.. فتعرى من كل شيء.. وطارت من رأسه كل دعوى بالألوهية والربوبية..

ها هو يشهق شهقات الموت وأمواج البحر تتقاذفه ويضيع في التطام الأمواج ذلك الاعتراف بالله الذي لا إله إلا هو..

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

فهل ينفعه هذا الإيمان الاضطراري.. ويأتي الجواب الإلهي على ذلك

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩١- ٩٢]

وانطوت صفحة حياة فرعون.. ولكن بقي! بقي ذكره في كتاب الله الكريم ليكون نموذجاً للطغيان العاتي.. قد تتكرر صورته أو بعض صفاته في بعض الطغاة عبر الزمن.. ولكن مصيره هو مصير من سار على دربه من الذين يستكبرون عن عبادة ربهم، ويدعون ما ليس لهم بحق من صفات الألوهية والربوبية.

الفصل الرابع

الألوان في القرآن الكريم

الألوان في القرآن الكريم

من منا لا تلفته الألوان باختلافها وتنوعها أوليس كل ما حولنا من الأشياء ذا لون؟ أو ليس صحيحا قول من قال:

الألوان زينة العالم – وعالم بلا ألوان عالم ممل حزين.

ولكن هل نلتفت إلى الجمال الذي تحمله الألوان..

الألوان في الأفق... من الشفق إلى الغسق، من الليل الفاحم إلى الخيط الأبيض، والخيط الأسود من الفجر؟.

وما بين ذلك من درجات... في الشروق والضحى... والعصر؟

هل نلتفت إلى الألوان عندما يكسو الربيع الأرض بالخضرة... والأزهار والورود؟

هل نلتفت إلى الألوان في الصخور والحجارة الكريمة... وفي التراب والرمل؟

يقول الخبراء: إن هناك ملايين الألوان الممكنة الوجود..

ولكن ما تحتاجه الحضارة الإنسانية من الألوان لا يزيد عن الفين فحسب.

والعين قادرة على تمييز مئة وثمانين درجة من اللون ولكن من منا يستطيع أن يعطي كل درجة اسمها الخاص؟

لا يستطيع الإنسان المتوسط الخبرة تمييز أكثر من ثلاثين لونا.

هل تظن أن للألوان وظيفة جمالية فحسب؟ تعال معي في جولة في جوانب الحياة المختلفة: ألا ترى أن للألوان وظيفة ودلالة في تنظيم السير؟

إشارات المرور وتقاطعات الطرق ولوحات أجهزة الطيران ومدارج الهبوط في المطارات.

وإذا هبطنا إلى عالم الفن وجدنا المختصين فيه يطلقون على الألوان صفات قد نجدها عجيبة:

فهناك ألوان خفيفة... وأخرى ثقيلة وألوان دافئة... وألوان باردة بل إن هناك ارتباطاً بين بعض الألوان والروائح والطعوم!

وهناك ارتباط بين الألوان والحال النفسية فمن الألوان ما هو هادئ يجلب إلى النفس السكينة... ومنها المهيج المثير... ومنها الفاتح للشهية... ومنها ما يسهم في معالجة بعض الأمراض..

بعد هذه الجولة في الألوان ودلالاتها... ألا ترى أنها ميدان من الميادين التي تتجلى فيها القدرة الإلهية... قدرة الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه؟

إننا نجد في القرآن الكريم آيات تلفتنا إلى عالم الألوان... ونجد فيه آيات تتحدث عن لون معين. قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

فهل سألت نفسك عن اختلاف ألوان العسل وسر ذلك؟

وهل تفكرت في اختلاف اللون وأثره في العلاج وقدرته على شفاء أمراض دون أخرى؟

من آيات الله في الألوان... اختلاف ألوان البشر!

قال الله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾.

أو ليس البشر جميعاً أبناء أبٍ واحد وأم واحدة؟

فلماذا كان اختلاف ألوان البشر وانقسامهم إلى أجناس بشرية؟

هل للبيئة الطبيعية من أثر؟

وهل للطعام أثر في اللون؟

أو ليس من آيات الله في ألوان البشر ما نراه من الفوارق بين الإخوة في الأسرة الواحدة؟

لقد حدثنا الله عز وجل عن آياته الباهرة في دورة الحياة النباتية وربط تلك الدورة بالألوان:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [**الزُّمر**:٢١]

أليس في هذه الآية رحلة مع الألوان في تجلياتها في الزرع بما فيها من إمتاع للعين، وإيقاظ للنفس والقلب والعقل للتأثر والتدبر والتفكر؟

ويأتي الحديث عن الألوان في ختام آيات تعرض علينا آيات الله عز وجل المبثوثة في الأرض بعد أن ينزل عليها الماء.

فتبدو في أحسن صورة فيما ينبت من شجر وزرع وزيتون وأعناب وثمرات، والآيات المبثوثة في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما يكون لها من شأن مع الليل والنهار...

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل:١٠]

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل:١١]

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢]

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل:١٣]

لقد ذكرت الآية اختلاف ألوان ما ذرأ الله تعالى في الأرض... ولكن اختلاف الألوان واصح في كل ما ذكرته هذه الآيات.

تعال معي إلى هاتين الآيتين من سورة فاطر... لنرى مهرجاناً للألوان في كل ما خلقه الله تعالى من حولنا ولنرى إبداع الخالق في عالم الألوان:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾.

ولنقف على ما ورد في تفسير "في ظلال القرآن" من خواطر حول هاتين الآيتين بشيء من التصرف:

" إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب. لفتة تطوف في الأرض كلها تتتبع الألوان والأصباغ في كل عوالمها، في الثمرات وفي الناس وفي الدواب والأنعام.

ولأن المعرض معرض أصباغ فإنه لا يذكر من الثمرات إلا ألوانها، لقد ذكر السياق أن الثمرات مختلف ألوانها... وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسامين في جميع الأجيال...

فما نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر بل ما من ثمرة تماثل لونها لون أختها من النوع الواحد.

وتحدثنا الآيتان عن ألوان الجبال... كما تحدثنا عن ألوان الثمار... وفي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتعددها لقد حدثنا النص عن الجُدَد أي الطرق والشعاب المختلفة الألوان... بل المختلفة الدرجات في اللون الواحد.

ويرد الحديث عن اختلاف ألوان البشر... كما يرد الحديث عن اختلاف ألوان الدواب والأنعام... والألوان والأصباغ فيها معرض جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور...

لقد ورد الحديث عن الألوان في القرآن الكريم في صورتين: عامة وخاصة... وفيما سبق إيراده... كان الحديث عن الألوان عاماً... وقد ذكرت في القرآن الكريم سننه ألوان في صيغ متعددة... وهي الأبيض والأسود والأخضر والأصفر والأحمر والأزرق.

ورد الحديث عن اللون الأبيض في أكثر من آية... وقد ورد على ظاهر المعنى في قوله تعالى عن موسى عليه السلام:

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾

وورد ذكر اللون الأبيض في الحديث عن الجبال وما فيها من الطرق والشعاب:

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ ﴾.

وفي الحديث عن طلوع الفجر نجد قوله تعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

نجد في القرآن الكريم استخدام اللون الأبيض للدلالة على مرض جسدي!

جاء في قصة يوسف عليه السلام ذكر ما حل بيعقوب عليه السلام عندما اشتدت به محنة فراق يوسف:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

لقد كان للحالة النفسية أثر جسماني ظهر في العين التي ابيضت وفقد يعقوب بسبب ذلك القدرة على الإبصار.

وفي القرآن يرد فيه اللون الأبيض علامة فوز...

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

وورد اللون الأبيض في سياق المدح وبيان الصفاء في الحديث عن شراب أهل الجنة:

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾.

اللون الأسود نقيض اللون الأبيض. وقد ورد في سياق عدد من الآيات اللون الأبيض علامة الفوز واللون الأسود دليل خسران.

اللون الأبيض وضوح وإشراق واللون الأسود عتمة وخفاء.

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾.

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

لقد اقترن اللون الأسود في القرآن الكريم بسوء الحال في الدنيا والآخرة... قال تعالى في وصف حال أهل الجاهلية وما كان من كراهيتهم الإناث:

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

هذا في الدنيا! وماذا عن اللون الأسود في الآخرة!

قال الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

إن سواد الوجه علامة على سوء المصير. وقد ورد اللونان الأبيض والأسود في كلام العرب بما يحمل الحسن والمديح لما يوصف بالبياض، والقبح والذم لما يوصف بالسواد. ومما ورد في ذلك قول القائل:

كلمته فما رد عليّ سوداء ولا بيضاء

أي لم يجبني بكلمة قبيحة أو حسنة

وتوصف اليد بالبيضاء... أي التي لا يمن صاحبها... والبياض علامة النقاء والطهر يقال: فلان أبيض وفلانة بيضاء أي عرضهم نقي طاهر من الدنس والعيوب ومن هذا الباب ما شاع في عصرنا من الصفات الدالة على النقاء قولهم: فلان ذو صفحة بيضاء والراية البيضاء علامة على الاستسلام وحقن الدماء.

يقابل ذلك ما يضاد هذه المعاني إذا استخدم اللون الأسود وما اشتق منه!

يقال للكلمة القبيحة: سوداء

والأسود: العظيم من الحيّات

والأسودان: الحية والعقرب

وقد ورد التعبير عن التمر واللبن بالأسودين. وفي هذا التعبير وقوف عند لون التمر الذي يميل إلى السواد وتغليب له على لون اللبن الأبيض.

ومن الألوان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: اللون الأخضر، وجاء استعماله بالمعنى الظاهر في وصف الأرض والنبات والشجر. قال الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقال سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

وورد استخدام اللون الأخضر رمزاً للخصب في رؤيا ملك مصر كما فسرها عليه السلام.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

وجاء اللون الأخضر مرتبطاً بنعيم الآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

يقول عبد الرزاق نوفل في اللون الأخضر " وصل العلماء إلى قرار قاطع بأن اللون الوحيد الذي يجلب السرور إلى داخل النفس، والانتعاش في الفكر ويثير في الإنسان علامة البهجة وحب الحياة هو اللون الأخضر. ومن أروع ما يدل على تأثير اللون الأخضر تلك التجربة التي أجرتها مدينة لندن على جسر (بلاك فراير) الذي يعرف بجسر الانتحار، وتقع أغلب حالات الانتحار من فوقه فغيرت لونه الأغبر القاتم إلى اللون الأخضر فقلت حوادث الانتحار فوراً إلى الثلث هذا هو تأثير اللون الأخضر في الإنسان وهذا هو سبب خلق النباتات والأشجار باللون الأخضر... ".

وجاء في الحديث عن نعيم أهل الجنة.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾.

ومن الألوان التي ذكرها القرآن الكريم اللون الأصفر، وقد جاء استخدام هذا اللون على معانٍ...

فهو لون يسر الناظرين، جاء في الحديث عن بقرة بني إسرائيل... الذين سألوا عن لونها فقال بينهم

﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾.

واستخدام اللون الأصفر للدلالة على قرب النهاية... جاء ذلك في المثل الذي ضرب للحياة الدنيا في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وقال تعالى:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾.

وجاء اللون الأصفر في القرآن الكريم علامة هلاك ونذير شؤم في الحديث عن الريح الأصفر:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ .

وقد ورداً استخدام اللون الأصفر في الحديث عن نار جنهم... في قوله تعالى:

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾.

جاء في تفسير هذه الصورة: إن المقصود بها أن الشرر المتطاير في النار يبلغ في عظمته القصر أي البناء العالي.

وجاء تشبيهه بالإبل السود وقيل لها: صفر وهي سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر اللون الأزرق مرة واحداً في سياق منفر مرتبط بحال المجرمين حين يحشرون قال تعالى:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ .

وأما اللون الأحمر... فقد ورد كذلك مرة واحدة في الحديث عن الشعاب والطرق في الجبال:

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ .

هذا شأن الألوان في القرآن الكريم بياناً لإبداع الخالق، وفي الكون من حولنا تجليات للألوان، وإبداع في التكوين كم فيها من الآيات للمتفكرين والمتدبرين... والموقنين.

محتوى الكتاب